سورة الشورى (42) ص 483

كانت قديما تسمى سورة حم عسق.
كلّها عن الولاية، عمّن اتخذ وليا غيره تعالى، مع عرض لأبرز نماذج مما نحن فيه فعلا من الولاية له تعالى من التبعية لقراراته تعالى الإجبارية علينا في إحيائنا وخلق بيئتنا والدنيا... وفي الرزق... وفيما قرّره لنا في آخرتنا من حساب وجزاء... وفي فقداننا السيطرة على نماذج من مجريات حياتنا وعارضة نموذج كمية الرزق ونموذج حركة السفن بالرياح التي لا سيطرة لنا عليها... وأمور أخرى... لنرى أنه لا معنى من الخروج عن ولايته تعالى في توحيد الألوهية والدين له سبحانه، منتقلة خلال كلامها على المعنى العملي لولايته تعالى بالتطبيق لتشريعه سبحانه النازل قديما وفي هذا القرآن...
تراها تربط بين ما كسبناه من أعمالنا وبين ما ينتج عنه هنا في الدنيا، وما سينتج عنه في الآخرة.
فيما قبل آخرها ربط ولايته تعالى بتصرفات المؤمنين مع المعادين لهم...
نصل إلى آخرها مع نموذج ولايته العملية علينا في مسألة خلافتنا له تعالى على الأرض... لتدخل من هناك إلى الوحي الإلهي النازل بهذا الكلام ليكون هاديا للناس...
نلاحظ فيها تكرار الابتداء باسم الجلالة الله كذا... في أواسط الآيات، ونلاحظ إهمالها لأحرف العطف في العديد من جملها.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(حم{1})

(عسق{2})

هذه آيات نقرأها مقطّعة هكذا: حا ميم. عين سين قاف.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للّغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد(ع) وبين كتاب إلهي

أساسي حوّل سبحانه قسما منه إلى اللغة العربية "طبعا باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنا، صار يمكننا قراءته من بعدما تحوّل إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.
نحن ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوّل إلى لغة من لغاتنا، وراجع الآية الأولى والثانية من سورة يوسف "الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"، وإلى الآية الثالثة من سورة فصلت "حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"، وإلى الآية الثالثة من سورة الزخرف "حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"، والآية الأولى من سورة القلم "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ"، من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحا أن القرآن كله قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآيات 38 من سورة الأنعام "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"، والآية 59 من سورة الأنعام "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ"، والآي 37 من سورة يونس "وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ"، والآية 61 من سورة يونس "وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ".
هذا الكتاب الرئيسي يحتوي على معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، ففيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة(ع) والجنّ والإنس، ومسجّل فيه ما سيفعلوه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.
هذا الكتاب ليس من ورق وليس مثل ذاكرة الكومبيوتر... وهو في

عالم مختلف عن عالمنا، حيث نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة(ع) بسبب تكوينها المختلف جدا جدا عن تكويننا، وكذلك نفس الشيء بالنسبة لذلك الكتاب، فقدراتنا الفكرية والتخيليّة أقل من كافية بكثير لتصوّره...
نفترض ضمنا واشتقاقا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." قد نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.
والكتب التي تتسجّل فيها أعمالنا متصلّة به، وحين نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...
الحروف المقطّعة التي بدأت بها بعض السور مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء.
أمّا بالنسبة لتحديد معان لهذه الأحرف المقطّعة، أو سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرّد أحرف عادية اختار تعالى منها نموذجا ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، فيبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو هناك فعلا شيء مميز فيها ولكني شخصيا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، فأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطا متماشيا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحّة نفسه.
أمّا البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه تخاريف لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، فعلى الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، فتمدح علي ابن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! فتمدح الخليفة الأول والثاني أبو بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الانترنت ستجد العديد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطّعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السريّة بينه تعالى وبين نبيّه محمّد(ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، فهذا أيضا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرار وتكرارا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين يمكن لأي إنسان "متوسّط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمّل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصّص في مصطلحاتهم المطّاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوّف والعرفان التي تمنعنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قدّيسين...

وتفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل من هذا الاحتمال مفتوحا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... فقالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى. وفي المقابل تجد تفسيرا آخر لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى!

وتفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف

في معنى محدّد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطّعا في سورة ق"، هذا أيضا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلا من فهم الأحرف مستعصيا إلا على قلّة قليلة من الناس الخبيرين باللغات، والذين لم ولن يتفّقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطا بالاستذواق، ممّا لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.
والقول بأن الأحرف المقطّعة ستكون جاذبة مستفزّة للكفّار الذين كانوا يسدّون آذانهم، وبسماعهم للأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، ففيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثّر ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نقوّم هذا الاحتمال ليكون عامّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وتصوّر مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين السادّين لآذانهم، فهو تصوّر بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورا بدأت بأحرف مقطّعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".
أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، وقد تكرّر نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدما في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.
أكرّر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، فماذا كنت تتوقّع منها؟ السحر؟ القوّة الخارقة؟

الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السرّ الخاصّ بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أو هي أحرف لها معنى وأثر وقوّة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟
أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرّها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم... فكلّ ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، فلا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...
انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميّز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو على الأقل فليكن تفسيرا يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!
كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنا متميزا بالتزامك بأوامره تعالى، فهذا تميّز ما بعده تميّز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحبّ الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... فأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{3})

كذلك، بمثل الأحرف التي سبق ذكرها "حم عسق" يوحي إليك، يصل إلى فكرك ووعيك معلومات بلا صوت ولا كلام مسموع عن طريق الأذن بل مباشرة إلى وعيك، وبعد قليل سنتوسّع في معنى كلمة وحي.
وكذلك يوحي، إلى الذين من قبلك، من الرسل كنوح وابراهيم وموسى

وعيسى عليهم السلام، ومضمون الوحي هو:
الله، صاحب هذا الإسم المحدّد المميّز له سبحانه، العزيز، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... الحكيم، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب، وقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، لأنه لا يفعل لغاية له سبحانه.
عبر تاريخ الناس، ولامتداد من آلاف السنين من قبلك، نزل الوحي الإلهي على بعض الرجال ليكونوا رسلا للناس، وكان صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى هو الموحي لهم، وقد أوحى تعالى لهم لا لأنه يحتاج ليوحي لهم، ولا لأنه يحتاج لهم، أو لأنه يحتاج ليفعلوا شيئا له، ولا يحتاج أن تؤمن به الناس فلن يستفيد من أي شيء "عزيز"، وأصلا سبحانه وتعالى لا يحتاج لأي شيء، ولا ينقصه شيء، ولا يتأثر بأي شيء... وستفهم هذا المعنى أكثر عندما تسمع بعض الناس يتحدّثون عن حاجته تعالى للرسل ليوصلوا رسالته، ونجد في أدبيات أهل الكتاب، تمرّد ودلع بعض الرسل عليه تعالى! على أساس حاجته سبحانه لهم بينما هم يعارضون ويناقشون... بعض الأوامر الإلهية! وتجد في أدبيات المشركين به تعالى والعلمانيين المحللين بذكائهم الخارق لنفسية الإله، تسمع عن احتياج الإله إلى من يعبده وإلا فلن يكون إلها وسيفقد أهميته... وهذا كلّه تنفيه عنه تعالى صفة العزيز.
النقطة الثانية أنه تعالى حكيم، فلم يوح عن عبث أو تسلية، مثلما تتصل بصديقك عبثا فقط لتمضية الوقت معه على الهاتف، ولم ينزّل معلومات لا قيمة لها، كرواية للتسلية أو كلام للترفيه أو كلام لغو...

بل هو الله حكيم وما أوحاه عن حكمة والمحتوى حكيم، وهذا القرآن نموذج عن ذلك.
كلمة وحي نقولها لعموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أو شرّا، وبناء عليه كل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...".
وينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "انسانا حيوانا ملكا أو جنّا" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.
وطرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا" لأنه كان صائما عن الكلام إجباريا، راجع تفسير الآية... ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا"، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ". أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ..."، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني.
وهناك وحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"، مضافا لها الآية 13 من سورة طه "وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى"،

فكلامه تعالى معه(ع) وحيا لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، ويصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيا.
وهناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.
والوحي يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا..." ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرا أو شرا فهو وحي.

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ{4})

له، منسوب لله تعالى، ما في السماوات "السبع" وما في الأرض، وهذا التعبير القرآني يرادف: له كل شيء. فلا يوجد في عالم المخلوقات إلا السماوات السبع بما فيها وبما يقابلها من أرض وصولا إلى الأرض التي نحن عليها، وهذا كل شيء في الدنيا، وكلها له تعالى.
نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضا على قبّة النجوم التي نراها ليلا ونطلقه أيضا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنويا على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ..." وهي إشارة الى وجود

سبع أراضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضي.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير مستبدلين تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيرا صحيحا دقيقا بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم "فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى". فسبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، وسبحانه دائما يتكلم بشفافية عمّا يراه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، هو كلام عمومي ويشمل "نظريا" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

وبناء عليه فبكل شفافية يتحدّث سبحانه معنا ويخبرنا أنه هو من جانب وحده الإله، والبقية غيره هم السماوات والأرض بما فيهن من كائنات وظواهر، ولا شيء آخر، ولم يلمس سبحانه أي أثر لأي شيء آخر، فهناك إله واحد والبقية كلّهم هو تعالى خلقهم، وهذا خبر منه تعالى لنا من نظرته العالية، وبشفافية يخبرنا أنه تعالى لم يلمس ولا أي نوع من الأثر لكائن إلا نفسه وما ضمن السماوات والأرض من مخلوقات التي هو تعالى صمّمها وخلقها كلّها، ولا يزال لوحده يتابع شؤونها، ولم يلمس ولا أي أثر لغيره في سلطته تعالى على العرش...

وهو العلي، الأعلى من كلّ شيء، فكل بقية الكائنات تحته تعالى بالمواصفات والقدرات.

وهو العظيم، بمقارنته تعالى مع مخلوقاته نفهم أن كل صفة "حسنة:

له الاسماء الحسنى" موجودة في مخلوقاته فلديه سبحانه صفة أعظم منها، فهم يرون وهو تعالى يرى بشكل أعظم، هم يسمعون وسبحانه يسمع بشكل أعظم... ولديه صفات لا نفهمها ولا نعلمها...
هكذا سبحانه يتبع له كل شيء فيملكه ويسيطر عليه ويدير شؤونه... وهو أعلى وأعظم من كلّ شيء، وهذا هو الذي أوحى به إليك وإلى الذين من قبلك بحسب سياق الآيات السابقة.
هناك صفات له تعالى لا معنى لها إن لم يوجد مخلوقات، حيث لا معنى للقول عنه تعالى "رازق" إذا لم يكن هناك مخلوق يحصل على الرزق، وهكذا العديد من الصفات الأخرى "الشافي الغافر المحيط..." ولكن هناك صفات لا علاقة لها بالكائنات بتاتا، فهو تعالى حي قيوم، وهاتان الصفتان تنطبقان عليه تعالى حتى لو يكن هناك أحد غيره، وحتى لو كان لوحده. وهناك صفات موجودة فيه تعالى ولكن لا معنى عملي لها إذا لم توجد كائنات، مثل السميع البصير، فهو تعالى متّصف بهاتين الصفتين ولكن إذا لم يوجد أحد غيره تعالى ليبصره ويسمعه تعالى، فلا معنى عملي لوصفه تعالى بهاتين الصفتين. هنا صفتا العلي العظيم لا معنى عملي لهما إذا لم يكن هناك مخلوق ووصفناه تعالى بأعلى وأعظم من المخلوق.
بهذا الكلام البسيط اختصرت لك كلاما طويلا شائكا تجده في الكتب عن فلسفة وفذلكة تصنيف أسمائه وصفاته تعالى، بين أسماء وصفات ذاتية وأسماء أفعال...
ولكن ننتبه على صفاته تعالى التي تفوق قدرتنا على تصوّرها وفهمها، حيث هناك الصفات التي لدينا، فنحن نسمع ونرى... ونقارنها بصفاته تعالى طبعا مع الفارق، هنا ننتبه دائما لصفات لديه تعالى نجهلها ولا يمكننا أصلا تصوّرها ولا تخيّلها ولا فهمها حتى لو جرى شرحها لنا... لأن طبيعة تكوينه تعالى مختلفة بشكل هائل جدا جدا عن مخلوقاته.
ننتبه دائما أيضا لصفاته تعالى التي نظنّ أننا نفهمها ولكننا لا نفهمها على حقيقتها، بل بالتقريب نفهمها، فأنا أرى ما أمامي بعيني، والله تعالى يرى ولكن ليس بالعينين، فيرى بشكل أعلى وأعظم وصفا للرؤية مما أنا أرى، وأنا أعلم أنه تعالى يرى ما في السماوات كلها

في كل نقطة منها، فأعلم بذلك ولكن هل أفهمه؟ وهل أستوعبه؟ لا، لا أنا ولا الرسل(ع) ولا الملائكة(ع) ولا أي مخلوق يمكنه أن يستوعب ويفهم حقيقة صفاته تعالى لأنها أعلى وأعظم من أي فكرة أو علم أو تصوّر من قدرة أي مخلوق على تصوّرها.
وبمناسبة الكلام عن صفاته تعالى نكمل الكلام من الآية السابقة مع الآية هنا ليصير لدينا: أوحى العزيز الحكيم المنسوب له كل شيء العلي العظيم. وبناء على فهمنا لصفاته تعالى نقول: عزيز هي صفة ذاتية له تعالى يتّصف بها حتى لو لم يوجد مخلوقات، لأنها تعبّر عن ذاته تعالى، وهي من أعمق أساسيات الصفات الذاتية الإلهية، مثل الحيّ القيّوم، والصفة الثانية حكيم تعبّر أيضا عن صفة ذاتية له تعالى حتى لو لم يوجد مخلوقات، ولكن لا بد من وجود مخلوقات لترجمتها عمليا، فتصفه تعالى هكذا لوحده بأنه إن فعل أو قال فهو حكيم، ولكن عمليا هو وصف لقوله وفعله، وجملة النسبة "له كل شيّ"، عمليا هي وصف تبعية المخلوقات له، ومالكيته وسيطرته وإدارته سبحانه لكل شيء، وهذه الصفات حتما لا معنى لها لولا صيرانها فعليا وتحقّقها، فيكون هناك شيء مخلوق وتنسبه له تعالى وتصفه بالخالق، وننتقل لصفتي العلي العظيم كمقارنة صريحة بينه تعالى وبين مخلوقاته فهما صفتان يصير لهما معنى عملي حين يصير هناك مخلوقات.
إذا نحن أمام: صفة العزيز الذاتية، وصفة الحكيم المرتبطة بالفعل والقول، وصفة الفعل والقول تترجم عمليا بنسبة كل المخلوقات من كائنات وظواهر له تعالى "له ما في..."، وأخيرا صفتا المقارنة بينه تعالى وبين مخلوقاته فهو أعلى وأعظم منهم.
وهكذا نقف أمام هذه الصفات المتنوعة لينتبه الجميع لصفات الذي يتكلّم معنا عبر هذا القرآن.

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{5})
تكاد السماوات، فعلى شعرة، فبقي للسماوات القليل حتى، يتفطّرن، ليصير فيهن شقوق ويخرج شيء ما منها، حيث لا تعد السماوات

متماسكة طباقا بل يتشققن، من فوقهن، فكل سماء فوقها سماء، والسماء الأخيرة هي السماء العالية التي نفترض أن فيها الملائكة(ع) العالية، فهذه السماء هي الأقرب لبداية نزول الوحي الإلهي لأن الكتاب الإلهي موجود هناك وعبر الملائكة الناقلة له من هناك، ومن عظمته وعلوّه سبحانه فحين يحصل نزول للوحي تكاد السماوات تنهار وتتداخل ولا تعد كل واحدة منها متماسكة كطبقة عن الأخرى، وتحتها سماء تكاد أيضا تتفطّر من عظمته الله تعالى... وهكذا وصولا إلى آخر سماء، فكل سماء من فوقها تكاد تتفطّر لأن السماء التي فوقها تكاد تتفطّر.

والملائكة، والكائنات الموصوفة بأنها تملك شيئا مميزا، وهذا صار اسما لنوع من الكائنات التي تملك قدرات عالية ومؤمنة وأمينة ومطيعة له تعالى... يسبّحون بحمد ربّهم، بسبب معرفتهم بعلوّ وعظمة المسؤول عنهم من مستوى إلهي يسبّحون بحمده فينزّهونه عن الصفات الناقصة والتي لا تليق به والتي تنافي وصفه بالحمد، لأن كل ما يصدر عنه تعالى يكون محمودا جيّدا، وأي صفة تخطر في البال أو تسمعها من غيرك ومعناها أنه تعالى يقوم بعمل غير حميد فهم يسبحونه فهم ينزّهونه عنها، فيقولون أو يشعرون أو يتصرفون على أنها غير موجودة فيه تعالى، لأنهم يعلمون يقينا أنه إله تامّ الصفات الفائقة وله الاسماء الحسنى فقط. وعمليا يكون ذكرهم لأسمائه الحسنى "وهّاب سميع عليم حكيم..." لوصفه تعالى بها فهو تسبيح له تعالى عن الأسماء غير الحسنى، عن الجهل والعبث والظلم...

ويستغفرون لمن في الأرض، تطلب الملائكة(ع) منه تعالى التجاوز عن سيئات الناس الذين على الأرض. طبعا يفترض بك القرآن وبناء على هضمك لمفاهيمه أنهم يطلبون منه تعالى مسامحة المؤمنين "من الدرجة المنخفضة" عن ذنوبهم كما ورد في الآية 7 من سورة غافر "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ"، ولا يطلبون غفران ذنوب الكفّار وسترى ذلك من تكملة الكلام باستعمال صفة الرحيم

كصفة إلهية خاصة للعناية فقط بالمؤمنين.
طبعا تفهم من الآية تخصيصنا نحن البشر من الكلام عن أرضنا، لأن القرآن نزل على هذه الأرض، مع أن كلام الآية لا يتنافى مع عمومية استغفار الملائكة(ع) لكائنات على أرض أخرى في سمائنا أو في سماء أخرى، ولكن لم تشر له الآية صراحة.
ألا إن الله، فيخبركم سبحانه بشيء أكيد أنه، هو الغفور، فصحيح ما تقوم به الملائكة(ع) باستغفارهم لمن في الأرض لأن الله تعالى يغفر بكثرة، فيتجاوز بكثرة عن سيئاتنا وليس صلبا جافا يأخذ موقفا ثابتا ممن عصاه، فمن استغفر فسبحانه يغفر له، وهو الرحيم، فلديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، ولذلك يغفر لهم، فالمغفرة ليست لكل الناس بل للمؤمنين فقط، والشفاعة ومضاعفة الحسنات... أيضا للمؤمنين فقط.
من عموم القرآن نفهم أنه تعالى رحمان لكل مخلوقاته ومن ضمنهم عموم الناس، حيث خلقهم وأعطاهم الحياة والفكر والأحاسيس والرزق والهداية... وتبقى رحمته تعالى هذه منتشرة على الجميع إلى أن يقرّر الناس الخروج منها، وعندها يصير سبحانه موصوفا برحمة خاصة للمؤمنين فقط، لينير قلوبهم ويغفر لهم ويكفّر عنهم سيّئاتهم... وهذه أمور لا تحصل إلا مع المؤمنين فقط، ولذلك ترى القرآن استعمل صفة الرحيم هنا ليشير للعناية الإلهية "الخاصّة" بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وعلى رأسها مغفرة ذنوبهم.
بالنسبة لكلمة ملائكة فهي مؤنّث لفظي، مثل كلمة شمس، فأنت لا تقول: هذا شمس. بل تقول: هذه شمس. علما أن الشمس مجرد نجم لا معنى للقول عنه أنه ذكر أو أنثى، ولكن لفظ اسمه باللغة العربية يعطي معنى الأنوثة، فقط لفظ الاسم، ولا يعبّر فعلا عن أي حقيقة "ذكورية أو أنثوية" ولذلك نسمّي هذا النوع من الأسماء بأنه تأنيث لفظي وليس تأنيثا حقيقيا، مثل كلمة شجرة وردة ملعقة مدفأة رجال... والتأنيث الحقيقي هو ما عبّر عن حالة أنثوية، كامرأة ولبوة وهرّة... لمزيد من التوسّع حول كلمة ملائكة كوصف صار اسما، راجع دراسة الآية 77 من سورة الزخرف "وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ...".

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ{6})

والذين اتخذوا من دونه أولياء، والناس الذين تركوا الاعتقاد والعمل على أساس تبعيّتهم لله تعالى ووالوا غيره فاعتبروا أنفسهم تابعين لغيره سبحانه، الله حفيظ عليهم، لا يتركهم مهمولين، ومن تكملة الجملة ترى أنها وصف اهتمامه تعالى باتخاذهم وليا غيره، وعمليا سيحاسبهم على ذلك.

كلمة حفيظ لها تطبيق واسع لعموم العناية والاهتمام والصون، وبحسب سياق الكلام تفهم ما تقصد الاهتمام به فلا تحصرها بمعنى العناية بمنفعة ومصلحة، فهنا هي على معنى العناية بتسجيل ما يفعلونه من موالاتهم لغيره تعالى حتى يحاسبهم ويجازيهم بالعقاب على ذلك.

وما أنت، ولست أيها الرسول محمّد(ع)، عليهم، على الذين والوا غيره تعالى، بوكيل، فلست معتمدا لتسيير أمورهم كما يجب، فلم نوكل إليك هدايتهم حتى تصير وكيلا عليهم كمسؤول تتحاسب إن لم يؤمنوا، فلست مسؤولا عن أعمالهم ولا عن إيمانهم، فلا يتصوّروك ولا تتصوّر نفسك مثل مدير معمل إنتاج للسيارات، حيث هذا مسؤول عن إنتاج عدد محدّد من السيّارات كل يوم، وعن نوعيتها وجودتها... ومسؤول عن نشاط العمّال، ويمكنك محاسبته إن لم يعمل العمّال بفعالية... أمّا أنت أيها الرسول، فهناك أناس لم يوالوه تعالى ووالوا غيره وأنت لست مسؤولا عنهم فلن نحاسبك على أعمالهم.

نفهمها بشكل أسهل إذا نظرنا من نظرة من والى غيره تعالى ويقول بأن الرسول فاشل لأنه لم يستطع إقناعه بالإيمان، ولرأينا أنهم ينظرون للرسول كأي شخص يحاول تأسيس حزب وجماهير له... وفشل في ضمّهم إلى جماعته... أو أنه فعلا رسول إلهي وسيتحاسب على فشله في مهمّته لأنهم لم يؤمنوا... أو... على أساس أن من مهمّته ومطلوب منه وسيتحاسب... إن لم يؤمنوا، لا، لست عليهم بوكيل ولا حفيظ كما ورد كمثال في الآية 107 من سورة الأنعام "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ".
سترى تمحور السورة حول الولاية لله تعالى والولاية لغيره، ضع في ذهنك دائما أن الولاية هي عامة التبعية في أي شأن كان، وفي حالتها التامّة هي علاقة بين طرفين، أحدهما توجّه نحو الآخر معتبرا له مرجعا في أي شيء من أموره، والطرف الآخر اعتبره مواليا له، سواء على الخير أو الشر، في كل شيء أو في شيء واحد أو أشياء.
القرآن في كلّ سوره يخبرنا أنك بمجرد سماعك كلام أي شخص كان، وسرت عليه، فقد واليته، حتى لو بكلمة واحدة في حياتك "شيطانية أو إيمانية" عندها تسجّل عليك أنك واليته وهو ولي لك في تلك النقطة، وهنا السورة تعبّر عن حصر الولاية لله تعالى باتباع الوحي الإلهي النازل على رسوله محمّد(ع)، ولم تتحدّث عن ولاية الرسول ولا ولاية المؤمنين لأنها الدرجة الثانية "المتدرجة" من ولايته تعالى، وهنا السورة تتحدّث بالخصوص عن أساس الولاية الصحيحة لتصحيح عقيدة من يوالي غيره تعالى كإله.

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ{7})

وكذلك أوحينا إليك، مثلما ألقينا إلى فكر ووعي الرسل السابقين معلومات عن صفات الإله سبحانه والتحذير من ولاية غيره، ولمزيد من التوسّع حول كلمة وحي راجع دراسة الآية الثالثة من هذه السورة، كذلك أوحينا إليك، قرآنا، معلومات يمكن قراءتها، عربيا، باللغة "باللسان" العربية، لتنذر، لتنقل الخبر عن خطر قادم حتما لمن توافرت فيه شروط حصوله، لتنذر أمّ القرى، والقرية مكان مجتمع من الناس للعيش فيه، والكلام هنا عن مكان "أمّ" أي رئيسي، ومعلوم أن الكلام عن مكّة التي بدأ فيها النبي محمّد(ع) بنقل كلامه تعالى للناس، والتي كانت قرية كبيرة أساسية في ذلك الزمان، ويأتي إليها الناس من مختلف القرى للحجّ والتجارة... ولتنذر، من حولها، من القرى الأخرى القريبة من مكّة المنتشرة في الاتجاهات المختلفة، وتنذر، وتخبر "الناس في أمّ القرى ومن حولها" عن خطر قادم حتمي

عليهم "بسبب كفرهم"، يوم الجمع، في الزمن الذي يتم جمع الناس فيه، وسياق الكلام عن زمن عودة الناس إلى الحياة مرّة ثانية "في الآخرة" حيث فيه خطر محاسبتهم وعقابهم، لا ريب فيه، سيحصل يوم الجمع حتما ولا يوجد أدنى احتمال في أنه لن يحصل.
الخبر عن يوم الجمع يصدر من الإله ذي الصفات التي وردت في أوّل السورة والتي تعكس قدراته الفائقة، الذي قرّر حصول يوم الجمع، وانته الموضوع وحتما سيحصل. مثلما تسمع كلاما من إنسان جدّي لا يمزح ولا يتهاون ولا يتساهل ولديه القدرة والعزم على فعل ما يقوله، ولا يخطر ببالك للمحة أنه قد لا يفعل ما يقوله. طبعا هذا التصور لواحد من الناس، والآن تصوّر كلام الإله عن شيء قرّر فعله، فلا ريب فيه، ولا أدنى إحساس عن أنه لن يحصل، بل حتما سيحصل.
فريق، قسم من الناس يفترق مختلفا عن الآخرين في شيء، في الجنّة، في المكان الموصوف بروعة ما فيه من حدائق وبساتين والبهجة والسعادة... وفريق في السعير، والسعير هو عموم تأجيج الشيء ليصل إلى أقصى الهيجان، ونوصّف الحيوان بأنه مسعور، ونوصّف النار بذلك من شدة حرارتها وطول ألسنة اللهب ولصوتها القوي. الصورة هنا عن تفريق الناس في نهاية يوم الجمع لفريقين، واحد يدخل الجنّة والآخر إلى النار.
نتذكّر دائما أن اللغة العربية مثلها مثل بقية اللغات، فيها ميزات وفيها نواقص، وليست متفوقّة على غيرها من اللغات، وأصلا لا وجود للغة متفوقة أو مميزة على الأخريات، وسبب اختيارها لنزول القرآن بها لأن الرسول محمّد(ع) يتكلّم بها، بالعربي، وفيما بعد نزول القرآن تميّزت اللغة العربية لأن الإله سبحانه استعملها بقدرات إلهية لصياغة هذا القرآن، وصار الكلام الإلهي مرجعا لغويا للغة العربية ويمكن اعتماده كمرجع لغوي للمقارنة مع بقية اللغات، مثلما قوّم سبحانه للعرب دقّة استعمال لغتهم، باستعمال الكلمة المناسبة في المكان المناسب، فيمكن لبقية اللغات المقارنة بين كلماتها المرادفة للكلمات العربية والاستفادة من دقّة استعمال القرآن لها.
هذا الكلام نقوله انطلاقا من دراستنا هذه، لأنها شدّدت على استخراج

المعنى الدقيق للكلمات، ونجحت في العديد منها، وكانت وسطية النجاح في بعضها الآخر، ولم توفّق في كلمات عديدة، وإن شاء الله تعالى تكون دراستنا هذه بذرة لمن يستفيد منها ليطوّرها، بشرط الدقّة والتحقيق، لأننا كثيرا ما نقرأ ونسمع عن تحقيقات في معاني كلمات القرآن وللأسف أكثرها سطحي طفولي وغير رصين علميا! والأكثر بلا تحقيق دقيق ولم يقارنوا بين المعنى الذي اقترحوه وبين كل استعمالات القرآن لتلك الكلمة! ومن كان من هؤلاء يرجو الله تعالى واليوم الاخر، فأجره على الله تعالى، ونشكره على جهده حتى لو لم يكن صحيحا فعلى الأقل ألهمنا وساعدنا للتقدّم. وهذه الدراسة هنا ليست النهائية للقرآن، وإن شاء الله تعالى تكون ملهمة لكم حتى تدرسوه بشكل أفضل وأدق، لأنها عصارة أهمّ ما سبقها من تفسيرات ودراسات ومقالات... طبعا هذا رأي الشخصي لمجهودي، وإلا لما حاولت نشر دراستي هذه لو لم أقتنع بأنها تقدّم شيئا جديدا مفيدا.
بديهي أن القرآن العربي النازل على الرسول العربي "المكّي" سيكون أول توجّهه بالإنذار لعرب مكّة ولمن يحتك بهم بشكل عادي من جيرانهم وزوّارهم والحجّاج من العرب... هذا طبيعي وعادي لأن الرسول عربي، وأمّا أصل الرسالة وأصل نزول الوحي، فهو لكلّ الناس بدون استثناء كما ورد بشكل متكرر في القرآن بتعابير مختلفة، للعالمين، للناس، للناس كافة... افهمها كنموذج عملي مثل الآية 214 من سورة الشعراء التي أمرته (ع) أن ينذر عشيرته الأقربين "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"، لأنك بالبداهة تعلم أنه (ع) ليس رسولا خاصا ببني هاشم، ولكنهم أقرب الناس له، ومن البديهي أن يتوجّه إليهم بالإنذار قبل وأكثر من غيرهم، وبعدها يكون من الطبيعي التوجّه بالإنذار لبقية أهل قريته "مكّة"، وبعدها للقرى المجاورة.
كلمة "أم" وصف لأساس لمرجع الشيء حيث يتبع له معنويا أو ماديا، كاتباع ونسبة ولد الحيوان لأمه فهو معنوي ومادي معا، وكاتباع ونسبة قرى صغيرة لقرية كبيرة أو لبلد ما إداريا، لتكون أم معنوية اعتبارية لهم، وكنسبة الإنسان للأمية على النسبة للحالة التي انولد فيها، فحينها لم يكن يعلم شيئا، لم يعلم الكتابة والقراءة، لذلك نصفه بالأمي، وهذا الوصف بالأمية ليس حصرا للقراءة والكتابة بل يشمل

الأمية بالطب أو الزراعة... فأنا شخصيا أمي في لعبة الكركيت وهندسة الطيران...
هنا الكلام عن وصف مكة بأم القرى من البديهي أنه لا يقصد أنها أساسية ومرجعية لكل القرى على الأرض، لأن الكثير من الناس من البلدان البعيدة لم يسمعوا بها أصلا، ولكن تقصد الإشارة إلى ما سيتوسّع فيما بعد، وأنت من عموم كلام القرآن تعلم أن الرسول محمّد(ع) للعالمين، للناس أجمعين... من زمانه إلى نهاية الدنيا، أمّا في بداية تلقيه للوحي فحتى هو (ع) ذات نفسه لم يكن يعلم بذلك، ومن أمثال هذا الوحي الوارد في الآية هنا، علم(ع) وعلم الآخرون أنه(ع) ليس رسولا لأهل مكة فقط...
هكذا يكون وصف مكّة بأم القرى يشير لأهميتها لمحيطها الضيّق من القرى، لأنها بالنسبة لهم أم لأنهم تابعون لها في أمور معيشتهم...
لمزيد من التوسّع حول نزول القرآن بالعربية وما يقولونه عن أهمية اللغة العربية، راجع ما ذكرناه تحت الآية الثالثة من سورة فصلت السابقة، وما ورد في دراسة الآية 97 من سورة مريم.

(وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ{8})

ولو شاء الله، فهناك خيارات عديدة أمامه سبحانه ويمكن أن يختار منها ما يريد، ولو شاء، لجعلهم أمة واحدة، فهما فريقان: فريق في الجنّة وفريق في السعير، ولو شاء تعالى لجعلهم أمة واحدة كجماعة لها امتداد تاريخي متوافقة على دين واحد، لجعلهم سبحانه كلّهم مؤمنين غصبا عنهم على امتداد تاريخ حياة البشرية، لسحب منهم حريّة الإرادة والاختيار مانعا لهم عن فعل السوء، ولجعلهم كالآلات المبرمجة التي تصلّي وتصوم ولا تفعل السيئات... ولكنه تعالى لم يشء ذلك.
ولكن "سبحانه شاء أن" يدخل من يشاء في رحمته، اختار تعالى ضمّ المؤمنين إلى عنايته الخاصّة، والظالمون، والذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين، فلم يكن معهم حق حين والوا غيره تعالى، فهؤلاء لن

يدخلهم سبحانه في رحمته، ما لهم من ولي، لن يجدوا من يعتبرهم تابعين له، فلن يجدوا من يتولّى العناية والرعاية بهم، والكلام هنا عن الآخرة وعمليا لن يجدوا هناك من يرحمهم، وما لهم من نصير، ولن يجدوا من يحقّق لهم ما يريدون، فهم يريدون الخلاص من السعير ولن يجدوا من ينصرهم ليحقّق لهم الخلاص من العذاب...
القرار الإلهي لنا أن نبقى أحرارا في مشيئتنا "في اختياراتنا"، ولن يجبرنا سبحانه على طاعته غصبا عنّا "ولا على معصيته غصبا عنّا" مع العلم أنه تعالى قادر على ذلك، ولكنه لم يقرّر ذلك، بل قرّر خلق نظام للعقاب والثواب مبني على حرية الإرادة والاختيار التي منحها لنا.
من ناحية ثانية لم يشء تعالى أن يضربنا على يدنا كلّما فعلنا سوءا، وكلما تركنا خيرا، لأن هذا أيضا لا يتماشى مع حريّة المشيئة والاختيار، صحيح أن المؤمنين سيفرحون حتما بمرافقة ملاك يساعدهم على ترك السوء وفعل الصالح، "ويحصل شيء من هذا النوع مع المؤمنين كما نفهم من القرآن"، أمّا من لا يريد أن يؤمن، سيصرخ وينتفض ويقول: اتركوني ولا تنبّهوني كلّما هممت بسوء، لأني أريد أن أفعله... وهذا الكلام نسمعه من الذين تنبّههم أنت عند ارتكابهم للسوء، فيقولون لك: دعك من مواعظك وأرحنا من نصائحك، لأننا لا نفعل أي سوء، فهذا يستحقّ الغيبة وذاك يستحقّ أن نسلبه ماله... إذا، ينبّهنا القرآن دائما للقرار الإلهي بحقّنا، فسبحانه قادر على جعلنا مؤمنين غصبا عنّا، ولكن شاء تعالى أن يتركنا مع حرية الإرادة، والذي اختار ولايته تعالى والتي هي عمليا الإيمان بالحقّ وفعل الصالحات، هذا سيكون له الرحمة الإلهية من مغفرة وثواب وجنّة، ومن والى غيره تعالى، فهذا ظالم، ليس معه حقّ بذلك، وهو أخرج نفسه من تحت مظلّة الرحمة الإلهية، وفي الآخرة سيتعذّب في جهنّم ولن يجد من يرحمه أو ينصره.

(أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{9})

أم اتخذوا من دونه تعالى أولياء! كما نقول: ذهبتم من دوني. وتقصد أنهم تركوك وذهبوا مع غيرك. فهل هؤلاء الناس تركوا ولايته تعالى ولم يعتبروا أنفسهم تابعين له تعالى! حتى لو في شيء واحد والوا غيره تعالى بشكل متعارض مع دينه تعالى، فما معنى هذا! الله هو الولي، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز هو وحده الولي الحقيقي من المستوى الإلهي، فما معنى موالاة غيره!؟ وما الفائدة من ولاية غيره! وهو وحده تسمع كلامه وتنفّذه وفي المقابل تحصل على اعتباره لك مواليا له، فيشملك برحمته، وأمّا غيره فلا يملك القدرات الإلهية، فلماذا تواليه!

هو الله، يحي الموتى، فهل يوجد شيء تتصوّره أكبر من إحياء الميّت؟ أساس منح الحياة للكائنات صادر منه تعالى، والذي ستواليه غيره تعالى قد صار حيا لأنه تعالى منحه الحياة، فما معنى الموالاة بمستوى إلهي لأحد الأحياء وهو قد حصل على الحياة منه تعالى؟ وهذا المعنى بناء على ما نفهمه من عموم القرآن بوصفه للحالة السابقة على الحياة عموما بالموت، لأننا قبل أن يخلق سبحانه السماوات والأرض لم نك شيئا ويصفنا القرآن في هذه الحالة بأنّنا كنّا أمواتا كما تقرأ في الآية 28 من سورة البقرة "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"، والآية هنا عمومية بكلامها وهي أيضا تشير لما نعلمه من إعادتنا إلى الحياة في الآخرة، فما معنى موالاة غيره تعالى من مستوى إلهي بينما سبحانه المانح للحياة أساسا في الدنيا ومرّة ثانية في الآخرة؟

تذكّر دائما أن المشركين عبدوا آلهة لها كيان حقيقي، فعبدوا الكواكب والملائكة والجن والبشر... وعبدوا كائنات وهمية من خيالهم ولا كيان لها كإله الحرب وإله الرعد وإله البحر... ومن معرفتك بذلك تفهم سؤال الآية هنا عن معنى موالاتهم لغيره تعالى من مستوى إلهي، فسبحانه طبيعته مختلفة عن مخلوقاته، لأنه كان حيا قبل كل شيء، وأعطى الحياة لكل ما هو حيّ، أمّا الكائنات التي والوها قد صارت حيّة لأنه تعالى أحياها، فكيف يتركون ولايته تعالى المحيي ليوالوا مخلوقاته؟ وإن كانوا يوالون آلهة وهمية لا كيان لها، عندها لا داعي للكلام عن معنى موالاتهم لآلهة من الخيال، وبالنسبة لهم

حيث يعتقدون بأن لها كيانا، فالموالاة تكون لمن كوّنها وجعلها حيّة، وهو الله تعالى محيي كل شيء حيّ.
نرجع للآية، وهو على كل شيء قدير، فلديه سبحانه القدرة على فعل أي شيء يريده بأي شيء، وأمّا غيره فليس لديهم القدرة الذاتية على فعل ما يريدون، ويمكنه تعالى منع أي مخلوق عن فعل أي شيء، ولا يمكن لأي مخلوق منعه تعالى عن فعل ما يريد، وكنموذج عن القدرة الفائقة لفعل ما يريده سبحانه هو منح الحياة للآخرين من الصفر، فهل لموالاة غير الله تعالى أي معنى!
أمّا بالنسبة لخلق النبي عيسى(ع) من الطين طيورا، مما يعني أنه (ع) أحيا الطيور، فراجع دراستنا للآية 49 من سورة آل عمران، أو الآية 110 من سورة المائدة، وبالمختصر فهذا خلق "تركيب وتأليف" من المستوى الثاني، مستعملا (ع) قدرات ممنوحة من الإله سبحانه، ومستعملا موادا لها خصائص جعلها فيها الإله سبحانه... ونحن حاليا يمكننا أن نخلق من المواد حياة تقريبا مثله (ع) عبر زرعنا للجينات في بويضات حاضنة... وهذا يمكن تسميته بالخلق من المستوى الثالث. طبعا هذه التصنيفات لمستويات الخلق افتراضية منّي لتقريب الصورة، علما أنها مستوحاة من مفاهيم القرآن.
الآية هنا صادمة تجعلك تقف مطوّلا أمامها لتفكّر في تصميم وخلق الحياة، وفي الكثير من السور أسهبنا مطولا بالكلام عن معرفتنا بآلية نشأة كوننا وصولا إلى نشأة الحياة، عبر فرضيات ونظريات الانفجار الأعظم... وصولا إلى النشوء والارتقاء... وبيّنا أنها معرفة "افتراضية" بقدر ما نفهم لآلية خلقه تعالى لكوننا وللحياة، وليست سببا للكفر به تعالى.
نبّهنا أيضا للسذاجة الطفولية السائدة عند غالبية المتدينين بهذا الدين الإلهي، لأنهم بشكل أو بآخر هم بغالبيتهم لديهم أساس فكري ونفسي بدائي بنسبة حصول الأشياء لقدرة خارقة "إلهية" تفعل الأمور بلا أي سبب، ففي عمق تفكيرهم هكذا فجأة تصير الأمور من لا شيء وبلا أي سبب سوى أمره تعالى لها أن تحصل، متخطية أي آليات لحصولها... يقول تعالى للشيء: كن حيّا. فيصير كائنا حيّا. وهذا ما عرضوه "المتدينون" على الآخرين كتفسير لكلامه تعالى، مما أنتج

عذرا لكفر العديدين بدينه تعالى عند تعرّفهم على آليات نشأة الكون والحياة متسلسلة بآليات مترابطة... وهم "الكافرون" لم يلمسوا في مراحلها أي تدخّل للقدرة الإلهية الخارقة التي يؤمن بها المتدينون، وبالتالي أعلنوا كفرهم "أو شكّهم الكبير" بإله مصمّم خالق.
يعني كلام الآية هنا عن أنه تعالى هو المحيي، هو المانح للحياة لكل الكائنات، فهذا الكلام ليس لاغيا لآليات ومراحل جرت حتى وصلت إلى تشكّل الكائنات الحية، بل يختصر كل المراحل لينسب له تعالى تسبيب تكوين كائنات حيّة كنتاج لما صمّمه تعالى وخلقه...
ضع في بالك دائما أن قدراته سبحانه فائقة بالنسبة للقدرات التي تتمتّع بها كل الكائنات، وخارقة بالنسبة لمعرفتنا، فنحن نشعل النار بمئة طريقة، بالقدح بالشرارة بالاحتكاك بالأشعّة... وسبحانه يشعل النار بمليون طريقة تتخطّى قدرتنا على فهم آلية حصولها، فهي طرق "خارقة" بالنسبة لضعف معرفتنا بكيفية إشعالها... وخذ مثلا جهلنا قديما بموجات الميكرويف، والانشطار الإشعاعي... وعليه يمكنك افتراض طرق أخرى يعلمها تعالى وقادر على فعلها لإشعال النار بطرق لن نفهمها الآن ولا فيما بعد بسبب الفرق الهائل بين علمه وقدراته سبحانه وبين علمنا وقدراتنا.
في القرآن، في الفهم الدقيق والبسيط الظاهر لكلامه تعالى، لا يوجد كلام عن فعله للأشياء بلا أسباب وآليات، وأصلا لا معنى لذلك، ويمكننا بالتفكير والملاحظة والافتراض والتجربة... التعرّف على الكثير من "آليات" طرق فعله تعالى للأشياء، وستبقى معرفتنا سطحية ولن تلمس عمق فهم طرق عمله سبحانه بسبب الفرق الهائل جدا بين قدرتنا المعرفية وبين قدرته العلمية عزّ وجلّ، فما قد تفترضه حصل فجأة بلا سبب إنما ناتج من ضعف قدراتك على فهم كيفية فعله تعالى له.
بعبارة أصرح وأبسط، ففهمنا لجملة قوله تعالى للشيّء: كن. فيكون. على معنى فورية حصول الأشياء، وبدون آليات وأسباب مترابطة، هو لبّ الخطأ الذي أدّى لإيمان طفولي ساذج، المشابه لاختراع المشركين لإله للمطر والبحر والزرع... في مقابل المدّعين للعلم الذين يواجهون المتدينين بنظريات تفسّر نشأة كوننا بدون أي تدخّل

لقوّة خارقة، مما يعني أنه لا يوجد إله.
القرآن ومن قبله التوراة هو كلامه تعالى، وقد نبّهنا ولم ننتبه، وفهمّنا ولم نفهم، وشرح لنا وتجاهلنا، حيث أخبرنا عن مراحل لنشأة السماوات والأرض في ستة أيام، وخلالها انفصلت السماوات وتشكّلت الأرض وتوافر فيها القوت... وأخبرنا عن مراحل نشأة البشر من سلالة من طين... وأخبرنا صراحة عن السفن أنه تعالى جعلها لنا، وعمّا نزرعه أنه هو تعالى أنبته، وعن المطر أنه تعالى أنزله وأن الرياح تحمله وتنقله... وللأسف وبكل طفولية بدائية ظننا أن الإيمان العالي هو الاعتقاد بقدرة إلهيه فائقة من النوع الخارق المتخطي لكل أنواع آليات فعل الأشياء! ولم نفهم صراحة كلامه تعالى عمّا نزرعه أنه هو تعالى أنبته لأنه تعالى خلقنا مع خاصية توصّلنا للزراعة في بيئة مهيّئة لذلك... وفهمنا كلامه تعالى كالسحر بالمعنى الخرافي لكلمة سحر والعصا السحرية والخاتم السحري... ككتابة خربشة أحرف على ورقة بطلاسم لا يفهمها حتى من كتبها على أساس أنها سيكون لها تأثير فينا وفي الأشياء لتغيّرها! وهكذا فهمنا قوله تعالى كن فيكون. بينما كلامه هذا تعالى يشير لحتمية حصول الأشياء، وليس لفورية حصولها، وهذا ليس تفسيرا مخترعا منّي بل كلّ القرآن مبني على هذا المفهوم، من خلقتنا ومرورنا بالامتحان... وموتنا، وإعادة إحيائنا... فهذا كلّه قال عنه تعالى كن. فكان حتما.
القرآن بعدة طرق عرض علينا آياته تعالى من خلق كائنات وظواهر، عارضا لها من نشأتها من لا شيء، من التصميم من الصفر وصولا إلى دنيا بسبع سماوات، ولفت انتباهنا لها لننظر إلى نتيجة تصميمه تعالى لها ولنتعرّف عليه تعالى من خلالها.

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ{10})

وما اختلفتم فيه من شيء، أي شيء لا تتفقون عليه وتصيرون مختلفين حوله، فحكمه إلى الله، فمن والاه تعالى فاعتبر نفسه تابعا له

سبحانه، ومن اختلف مع المؤمنين ووالى غيره تعالى، فالحكم فيهم إليه سبحانه، فلن يترك سبحانه هذا الاختلاف بلا حكم منه أو من دون أن يصدر منه تعالى قول في الخلاف، بدون أن يقول تعالى: أنت مصيب ولك أجر وذاك ضالّ وله عقاب.
ذلكم الله ربي، صاحب الاسم المحدّد المميّز الله هو المسؤول عني من مستوى إلهي، فأنا أؤمن بإله وبالتحديد اسمه الله وهذه صفاته وأفعاله، فهو أوحى للرسل وأنزل الكتب التي فيها الإنذار لمن والى غيره، وفيها تعريف بصفاته تعالى وجميل ما سيفعله بمن والاه وحده...
عليه توكّلت، اعتمدت واعتقدت أنه يتابع شؤوني ويرعاني ويسيّر الأمور على ما هو أحسن لي "إيمانيا"، وإليه أنيب، فأترك كل ما عداه تعالى وأرجع إليه فقط، فلا أسمع كلام غيره بل أترك كل كلام غير كلام الله تعالى وأرجع فقط إلى كلامه تعالى.
لاحظ الآية تخبرنا بأهمية مسألة الموالاة له تعالى وأنها مشكلة حصرية بين العبد وربّه، وهكذا ترى الآية ردّ على الذين يقولون: ما أهمية موالاتي لأي إله أخترعه الناس؟ ما الضرر وأين المشكلة؟ الجواب أنه لا مشكلة بينك وبين المؤمنين طالما لم تقم بأعمال عدائية ضدهم بسبب تدينهم، ولكن الإله يخبرك بأنك ستواجه مشكلة معه.
هذا الكلام مبدأ قرآني يخالفه الناس، لأن القرآن كلّه يجعل مشكلة الكفر أو الشرك أو الإلحاد أو... يجعلها محصورة بين العبيد وبين الله تعالى، ولا علاقة للمؤمنين بها، فلن تجد في القرآن وظيفة للمؤمنين لجعل الآخرين مؤمنين، بل عليهم فقط وفقط التبليغ.

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ{11})

الذي أنيب إليه هو:
فاطر السماوات والأرض، هو الذي جعل لهما كيانا ومن قبل لم يكونا، فمن قبل لم تكونا موجودتان وأوجدهما تعالى، ونتذكّر دائما أن التعبير القرآني "سماوات وأرض" مرادف لقولنا: كلّ شيء. لأن كل ما في الدنيا محصور فيهما ولا شيء آخر غير ذلك، ولم يستعمل

القرآن تعبيرا بخلق الدنيا ولا تعبير بأنه سبحانه خالق لكل ما في الدنيا... لأنه ليس تعبيرا دقيقا... وراجع ما قلناه منذ قليل في الآية 4 من التعبير بالسماوات والأرض.
سبحانه فاطر السماوات والأرض بما فيهم، وبالتالي فمن جهة هناك سبحانه وتعالى، ومن جهة ثانية هناك المفطورات التي فطرها تعالى، ولا يوجد أي شيء آخر، فلا إله آخر، ولا كائن إلا مفطور إلا منه تعالى، ولا كائن موجود بالصدفة أو لم يفطره سبحانه... وتتذكّر أن هذا النوع من التعبير القرآني المتكرر هو كلام منه تعالى معنا بشفافية، حيث يخبرنا أنه لا يوجد أمامه تعالى إلا نفسه وما فطره، ولا يلمس سبحانه أي أثر لغير ذلك، وبالتالي فهناك إله واحد والبقية كلّهم مخلوقاته، عندها يأتي السوآل عن معنى موالاة غيره من مستوى إلهي، أو اعتبار غيره تعالى إلها؟
جعل لكم من أنفسكم أزواجا، فصار لنا زوج منّا، فصار منّا أنثى وذكر، فنحن الناس بنظره تعالى مخلوقات ككتلة واحدة، وفي مرحلة ما من خلق الإنسان من سلالة من طين، صار هناك انقسام في الخلقة، فصار هناك ذكر وأنثى، والذي جعل هذا يحصل هو الله تعالى بتصميمه لنا وتخطيطه وسيطرته وتدبيره، وراجع الآية 72 من سورة النحل "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً..."، والآية 21 من سورة الروم "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً..."، فهذا بصراحة يشير إلى جعله تعالى من أنفسنا ذكرا وأنثى.
انتشر في التراث الديني أقوال لا تستند إلى وحي إلهي، حيث قالوا أن حوّاء هي أوّل أنثى بشرية وقالوا أنه تعالى قد خلقها من ضلع آدم(ع) أو مما بقي من طينته... وهذا الكلام لا نجده بهذه الصراحة في القرآن، بل دائما نجد "لا" تحديد للشخص ولا للكائن الذين من بعده صار هناك أنثى أو صار منه ذكر، أو صار منه ذكر وأنثى، فنجد عمومية التعبير بالنفس الواحدة التي صار منها زوجها، فلا تجد تعبيرا عن شيء تشكّل من آدم(ع)... ولا ندري تلك النفس "التي صار منها زوج" في أي حالة كانت، وما هي مرحلتها؟ وما شكلها

وما تكوينها قبل حصول زوج منها؟ لا ندري، وأقرب الاحتمالات بالنسبة لمعطياتي الحالية أنه ربما الكلام عن حالة خنثوية لحيوان، وبعدها صار منه ذكر وأثنى... ولكن على أي حال، كلام الآية يلفت الانتباه لحالة الذكورة والأنوثة التي نعيشها الآن، وتردّك الآية إلى ما قبل ذلك، فما بين تكوّننا من طين ووصولنا إلى حالة الذكورة والأنوثة لنفس نوع الحيوان، هناك مرحلة ما قبل الانقسام لذكر وأنثى، وهذا ما يلفت القرآن انتباهك له ولم يدخل في التفاصيل ليخبرك عن حالة الحيوان قبل أن يتوالد منه ذكر وأنثى، فلا تحصر الصورة في ذهنك عن إنسان خنثى، فبالنسبة للمعطيات البيولوجية الحالية نفترض أنها حالة قبل الإنسانية.

أيضا نجد في القرآن أن آدم(ع) أول بشري تأهّل ليتكلّف، ونجد في القرآن كلاما للملائكة(ع) عن وجود بشر يفسدون في الأرض قبل خلق آدم(ع) ، مما يشير لوجود بشر قبل آدم(ع) كما تقرأ في الآية 30 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ..."، مما يعني أن آدم(ع) متوالد هو وزوجته من بشر سابقين... وراجع الآيات 7، 8، 9 من سورة السجدة، حيث ستجدها تفصّل في مراحل خلقنا، وضمنا تفصّل خلقة آدم(ع) كنتاج لما صمّمه تعالى حتى يصير هناك بشر على الأرض... وأقرب كلام منطقي لعقولنا لفهم هذا الكلام القرآني هو نظرية النشوء والارتقاء، المعروفة بتطوّر الأنواع، ويمكننا بسهولة الدمج بين أساسيات تلك النظرية وبين أقوال القرآن، ونحن ليس لدينا يقين بصحّة تفاصيل نظرية التطوّر هذه... فالذين سبقونا من أهل الكتاب اعتمدوا على معطياتهم ولم يجدوا تفسيرا لكلام الوحي الإلهي إلا خلق آدم(ع) مباشرة من طين، وخلق حوّاء من ضلعه، هذا كان أقصى ما كانت عقولهم تستوعبه وتراه منطقيا بناء على معلوماتهم العلمية وتحليلاتهم التي كانت في حينها تبدو منطقية بدمجها مع معلوماتهم الدينية، ونحن بدورنا نرى سهولة تطبيق كلامه تعالى على نظرية النشوء والارتقاء وعليه نفهم جملتنا هذه أنه في مرحلة ما كان الكائن مثل حالة زهر الشجر الذاتي التلقيح، وبعدها حصل انفصال وصار من نفس الفصيلة نوعان، واحد ذكر والآخر

أنثى.
طبعا لا نقصد تأكيد ولا نفي أي فرضية أو نظرية علمية، لأنه بالأساس لم يكن من المفروض أن أفسّر القرآن بناء على نظريات، وكان من المفروض الاكتفاء بشرح الكلمات، ولكن الغالبية الساحقة ممن سبقنا من أهل الكتاب ومن المسلمين قد فسّروا كلامه تعالى بناء على علومهم "معطيات عصرهم"، وبناء على ما استوعبوه واستنسبوه، ولذلك وصلنا منهم ثقافة علمية "دينية" غير صحيحة، مما اضطرني للفت انتباهك إلى الفرق بين كلامه تعالى وكلامهم، وأن كلامهم ليس من أصل ديني صريح مبني على صراحة كلامه تعالى بل كلامهم مجرد تحليل "وتخمين"، وأن كلامي عن الآيات القرآنية التي تتحدّث عن نشأة الحياة أنها تتماشى مع نظرية النشوء، أيضا ليس دينيا، بل تحليل وتخمين... فمن الخطأ تفسير كلام القرآن على النظريات العلمية التي نعلم يقينا أنها مجرد نظريات سيتبدّل رأينا فيها وستتغيّر في المستقبل، ومن ناحية ثانية فقد تقصّد سبحانه في قرآنه الابتعاد عن أي معلومة لا يفهمها الإنسان العادي متوسّط الثقافة من بعد دراستها.
الآن فلنطل الكلام لنثبّت أساسيات دينية قرآنية تجعلنا نفهم عموم الأمور العلمية وغيرها من النظرة الدينية، فالقرآن كتاب هداية لم يذكر آليات حدوث الأمور، واكتفى فقط بالاشارة إلى الأشياء والظواهر لتذكيرنا ولفت انتباهنا وتقويم فكرنا ونفسيتنا... أنه تعالى خلقها فطرها أنشأها... وأقصى ما ذكره القرآن كان عن مراحل حصول الأمور بدون الدخول في تفاصيل تقنيات وآليات حدوثها، مثلا: ريح سحاب ومطر. فلم يدخل في اختلاف حرارة الهواء وكثافته... ولا في تقارب بخار المياه إلى طبقة هوائية مساوية لها في الكثافة... ولا تثاقل البخار بالغبار وفرق الشحنة بين سحابتين... فهذه آليات تقنيات حدوث الأشياء، ولا مرّة ذكرها القرآن ولا في أي موضوع، ومثلها خلقنا من سلالة من طين وجعل نسلنا من ماء مهين وصيران النطفة علقة... فهذه مراحل وليست آليات حدوث الأشياء، ومثلها خروج النبات من الأرض ليصير لها ثمر ثم تصير حطاما، فلا كلام عن امتصاص الخلايا للمياه والمغذيات وانقسامها بشكل

أكبر لجهة الحرارة والضوء وبالتالي نموّها صعودا...
مضافا لذلك كلامه عن الليل والنهار وجريان الشمس والقمر... وكما ترى فكلّه كلام بسيط واضح يفهمه أي إنسان عادي...
من الخطأ البحث في كلامه القرآني سبحانه عن أسرار علمية كاكتشافات علمية، ومن الخطأ البحث فيه عن آليات وتقنيات حدوث الأشياء، ومن الخطأ البحث فيه عن كيفية حدوث الحياة وفقدانها، وبالأخص فمن الخطأ البحث فيه عن كيفية إعادتها، وتفاسيرهم لآيات القرآن لاستخراج آلية إرجاعنا إلى الحياة عبر ما قالوه عن إرجاع الروح أو النفس إلى جسد... وتلبيس كلامهم بقداسة كلامه تعالى فهو خطأ كبير، وستجد في دراستنا هذه كلام مفصّل عن ذلك في الآية 42 من سورة الزمر "اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى..."، وسترى الخطأ في تلبيس أفكارنا وما نفهمه لتفسير كلامه تعالى بشكل يجعل كلامنا هو دينه تعالى، ولا مانع من طرحها كافتراضات ونظريات، ولا مانع من عرض تقاربها مع كلامه تعالى، إنما الخطأ عرضها كتفسير وحيد لكلامه تعالى لتصير مساوية دينيا لكلامه تعالى.
أضيف لك فاتحا عليك بابا لا أدري كيف ستستقبله، فحتى الرسول الأكرم محمّد(ع)، كان لديه طريقة في التعاطي مع بعض الأمور ومتماشية مع الموروث الثقافي العربي والديني لأهل زمانه، هذا بغض النظر عن الروايات الكثيرة جدا الكاذبة المنسوبة له (ع)، والتي فيها ما يخالف صريح القرآن أو يخالف من ستفهمه من القرآن من بعد مقارنة ودراسة، فبغض النظر عن تلك الروايات التي حتما لم يقلها (ع)، تجد ثقافة عامّة كطريقة بالتعبير عن أمور يعتبرونها عادية، والرسول(ع) تماشى معها، كقولهم عن الميّت أن روحه زهقت، ففي كلامه (ع) شيء من هذا القبيل، بينما لا تجد شبها لا من قريب ولا من بعيد لمثل هذه التعابير في القرآن.
ها كلام القرآن عن آدم(ع) ونشأة الحياة، والنفس التي خلق تعالى منها زوجها، فلن تجد في القرآن كلاما يشير إلى خلق زوجة آدم(ع) من آدم(ع).

المشكلة في هذا الباب أن تعظيمنا للرسول محمّد(ع) قد تضخّم مع مرور الزمن ليصير مغاليا بالمبالغة، ولم نعد نرى الروايات العديدة التى ترينا شخصيته الحقيقية(ع) كرجل عادي مثله مثل بقية البشر، ولم نعد حتى نرى القيمة الحقيقية له كرجل مؤمن من الدرجة العالية، وأنه لهذا السبب، ولهذا السبب فقط اختاره تعالى لينزل عليه الوحي، فأردناه أبلغ العرب وأشجع العرب وعالم بكل فنون العلوم... معتقدون أننا بذلك نفعل خيرا، بينما بابتعادنا عن الواقعية أقحمنا أنفسنا في متاهات سبّبت تولّد ثقافة دينية مقدسة ممنوع مخالفتها.
واحد من أهمّ الأدلة على إلهية مصدر هذا القرآن، أن الرسول محمدا(ع) الناقل له، فهو ليس بليغا بالقدر الذي تجده في مستوى كلامه تعالى، ومن أهم الأدلة على إلهية مصدر القرآن أن كلامه مختلف عن الكلام المنتشر كثقافة بين الناس وبين المنتمين لدينه تعالى في عصر النبي محمّد(ع)، ومنه كلامهم عن خروج الروح من جسد الميّت، ومنه كلامهم عن خلقة حوّاء زوجة آدم (ع) من ضلعه أو مما بقي من الطين... ومنه تشريعيا اعتباره (ع) زيدا كولد له، حتى جاء القرآن مانعا من ذلك...
نرجع للآية، ومن الأنعام، من الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة لنا لأننا نأكلها ونشرب لبنها ونستعمل أجزاء جسدها... جعل سبحانه منها، أزواجا، فهناك ذكر وأنثى أيضا في الحيوانات المحلّلة الأكل، وطبعا في بقية الحيوانات يوجد ذكر وأنثى ولكن الآية تلفت انتباهنا بشكل بسيط للحيوانات التي نحتك معها في أساسيات حياتنا وتعيش في بيئتنا ونرى بسهولة ومن دون تخّصص في دراستها أن الدجاجة والغنمة والبقرة... أناث، والديك والتيس والعجل... ذكور، وهم أيضا مثلنا من أنفسهم جعل تعالى منهم زوجا، وربما من جدّ مشترك سابقا بيننا وبينهم وربما من جدّ مختلف... وربما من طريقة لم تخطر على بالنا الآن...
هنا ألفت انتباهك للتراث الثقافي الديني الذي نظنّه من الدين الإلهي، فما قيل عن خلقتنا من تمثال من طين ونفخ الروح فيه ليصير فورا من لحم ودم، فماذا عن بقية الحيوانات، فمن أين أتت وكيف تشكّلت؟ وماذا عن النبات وهو أيضا حياة؟ وهكذا ترى أن كلام القرآن عن

نفخ الروح في الطين لم يكن كلاما عن آلية الخلقة بل عن مرحلة من الخلقة، وللتوسّع راجع الآية 72 من سورة ص "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"، وأضف إلى ذلك ما تقرأه في الآية 37 من سورة الكهف "قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا"، مثلما لا تفهم الفورية من التعبير بالتسوية في آية سورة الكهف، فافهم نفس المعنى من توصيف التسوية لآدم(ع).

يذرؤكم فيه، يجعلكم ذراري من حالة الذكورة والأنوثة، فيصير منكم أفراد، فتتوالدون وتتوالد الأنعام من حالة الزوجية، ويؤيّد هذا المعنى بقية ما ورد في القرآن من استعمال كلمة ذرأ، وبخاصة ما ورد في الآية 79 من سورة المؤمنين "وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ". فهذا الذي ترونه عاديا من كونكم أنتم والأنعام ذكورا وإناثا مختلفون وتتزاوجون وينتج عنكم ذرية، فهل حصل ذلك من دون ولي يلي هذه الخلقة؟ وحدث من دون مسؤول تتبع له هذه الخلقة بالتصميم والتنفيذ بهذا الشكل؟

ليس كمثله شيء، ليس لله تعالى مشابه أو مساوي له في أي شيء كان، فالصفات والقدرات الفائقة له تعالى لا يوجد لها أي شبه بتاتا، ومعلوم أن الكلام يشير أيضا إلى اختلاف طبيعته تعالى عن كل بقية مخلوقاته. فما معنى ولايتكم لغيره سبحانه! وهو وحده لا مثل له والبقية كلّهم متشابهون في كونهم مخلوقات، وما فيهم من صفات فهي من تصميمه وخلقه تعالى لهم.

هذه الجملة "ليس كمثله شيء"، هي أساس عقائدي قرآني نرجع إليها لنفي أي تشبيه له تعالى بأي شيء من مخلوقاته سبحانه وتعالى، فلا يد له تعالى من أصابع، ولا وجه بجبهة وجبين وعينين... ولا رجل ولا قدم... ولا شكل... وليس مركبا من أي مادة أو طاقة... الفرق هائل جدا جدا بينه تعالى وبين كلّ مخلوقاته، ويمكنك مراجعة أي آية ورد فيها اسم عضو بشري منسوب له تعالى لترى أنها لا تشير لعضو بل لتسمية مبنية على الوصفية، فاليد للقدرة على الفعل، والوجه لما تتوجّه به...

أيضا طبيعته تعالى مختلفة، وما هو دارج في أدبياتنا عن وصفه

تعالى بالنور، وخلط ذلك مع وصفنا للملائكة(ع) أنها مخلوقات من نور، قد أدّى بشكل ما إلى تكوين فكرة ضبابية عن تقارب خلقة الملائكة العالية من طبيعته تعالى... بينما لم يرد وصف مادة الملائكة(ع) في القرآن بتاتا، ووصفه تعالى لنفسه في القرآن بالنور لم يكن يشير إلى طبيعة تكوينه عزّ وجلّ بل يشير إلى وصف حالة تعامله سبحانه مع مخلوقاته، وراجع في ذلك ما ورد في الآية 35 من سورة النور "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ..."، وما ورد في الآية 4 من سورة القدر "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ".

وهو السميع، الذي يسمع كلّ شيء مهما كان وأينما كان، وهو البصير، يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل أينما كان ومهما كان، فيرى ويعي كلّ شيء، وحتى لا يخطر ببالكم أنه الخالق الفاطر... ولكن يغيب عنه بعض ما يجري مع مخلوقاته، هنا يخبرنا بصفاته الفائقة، أنه يسمع ويبصر كلّ شيء أينما كان، وعمليا هذا يعني متابعته ومراقبته تعالى لكل شيء.

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{12})

له الولاية الحقيقة سبحانه لأنه:

له مقاليد السماوات والأرض، الحكم وزمام الأمور والسيطرة له تعالى على كل ما هو موجود، وبتعبير مبسّط جدا فسبحانه تقلّد "تسلّم، تحكّم" بكل ما له علاقة في كل السماوات والأرض "من بعد ما فطرها"، فكلّه من حكم وسيطرة وإدارة... له تعالى.

يبسط الرزق لمن يشاء، فهناك خيارات عديدة أمامه تعالى بموضوع حصول مخلوقاته على ما يسدّ حاجاتهم ورغباتهم، من أكل وشرب وما يتعلّق بهما وببقية حاجاتنا، ومن دون أن يفرض عليه تعالى أي أحد فهو يقرّر بسط مدّ رزق هذا وذاك... فيجعله غنيا أو ثريا... ويقدر، ويعطي بقدر بكمية محدودة، فيرزق بكمية قليلة من يشاء من الناس. فما معنى ترككم لموالاته سبحانه وموالاة غيره! وعلى ماذا

ستحصلون من موالاة غيره؟
إنه بكلّ شيء عليم، يعلم كلّ شيء، فعن علم يبسط سبحانه الرزق ويقدر وليس كما قد نفعل نحن بدون دراسة وتخطيط، فلا يترك سبحانه الأمور تجري من دون تدخلّه... كما نقول لشخص يوزّع مساعدات على الناس: هل "تعلم" ماذا تفعل؟ ونقصد: هل توزّع عن دراسة وعن علم بحاجاتهم ومصالحهم؟ فربما تعطي من ستخرب حياته ليصير متكبرا مسرفا إن صار غنيا... هنا الآية تخبر الجميع أن بسط وقدر الرزق بيده تعالى وعن علم يحصل هذا البسط والقدر. ضع في بالك أننا سنجد في الآية 27 من هذه السورة شرحا لواحد من أسباب بسط وقدر الرزق على الناس.
نلاحظ في عموم التفاسير والقواميس القديمة بحثهم عن أصل بعض الكلمات العربية، فقالوا في بعض الكتب أن كلمة "مقاليد" أصلها فارسي من كلمة كليد التي معناها: المفتاح. وهذه بساطة طفولية في البحث عن أصل الكلمات، ولمجرّد الشبه بين الكلمتين جعلوا الأصل فارسي! وهذا كلام لا أساس علمي له، مثله مثل الغالبية الساحقة من كلامهم عن أصل بعض الكلمات التي استعملها القرآن.
لسنا ننفي أبدا أن اللغات تستعير من بعضها الكلمات، بل كل اللغات تستعير، واللغة العربية بالتأكيد استعارت من لغات أخرى، وباستعمال العرب لتلك الكلمات بصيغة تناسب طريقة العرب باللفظ والكلام، تصير الكلمة عربية من أصل أعجمي "أجنبي". لكن مجرّد الشبه بين لفظ الكلمتين لا يعني أبدا أن الأصل غير عربي! والأنكى من ذلك أن المعنى مختلف! فالمقاليد من قلادة والفعل تقلّد، تلبّس بشيء ما فصار معه، لبست القلادة أو لبست الحكم، تقلّدت القلادة أو تقلّدت الحكم، أو صارت مقاليد الحكم بيده... هكذا نستعملها كعرب، ولم أفهم لماذا الإله عزّ وجلّ إن كان يريد التحدّث عن المفاتيح ليقول "أن له مفاتيح السماوات والأرض" سيترك كلمة عربية ويستعمل كلمة فارسية! ألم يسألوا أنفسهم هذا! أم هم معجبون بهذه اللفتات والنكات التي تدل على وساعة علمهم!
على أي حال فالقدماء معذورون بشكل ما، لأن هذا ما كان عليه مستوى علم الألسنية وأصل اللغات في زمانهم... أمّا الذين لا زالوا

إلى الآن يستعيدون ما في تلك الكتب وينشرونه ويروّجون له على أساس أنه كلام من مصادر موثوقة، فهؤلاء لا عذر لهم بعد أن صار لدينا تخصصات وبحوث علمية تاريخية رصينة عن أصل الكلمات، ولو راجعت هذه الدراسات لوجدت أكثر ما في قواميسنا وكتب التفاسير عن أصل بعض كلمات القرآن ليس صحيحا.
الأغرب من ذلك كلّه وجود نوع من التوافق لدى المفسرين على إمكانية استعمال القرآن لكلمات أجنبية لم يسبق أن نقلها العرب! وكأنهم يقبلون أن يستعمل القرآن ولأوّل مرّة كلمة من أصل أجنبي فيعربّها ليجعلها بلفظ عربي ويستعملها! وتجد بذورا لهذا الكلام في بعض المرويات المنسوبة للجيل الأول من المسلمين الذين جهلوا معاني بعض الكلمات ولم يعلنوا عن جهلهم بها، فقالوا أنها قبطية أو نبطية أو حبشية أو فارسية أو رومية... وأكتفي بهذا المقدار لتضعه في بالك، ولتراجع في دراستنا هذه أي كلمة ادّعوا أنها أجنبية، لترى أنها كلمات عربية استعملها العرب قبل القرآن.
هذا من جانب، ومن جانب آخر وبناء على ما رموه في كتبهم تساهلا أو استهتارا من كلمات قرآنية لا أصل عربي لها قبل القرآن، فبعد ذلك جاء المعلّقون على القرآن ليثبتوا كذبه حين يقول عن نفسه بأنه عربي كما في الآية الثانية من سورة يوسف "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"، وهكذا وبفضل ما استظرف بعض علماء المسلمين من كلمات قرآنية ليجعلوها من الفارسية أو الرومية أو الحبشية أو النبطية أو السيريانية... صار لدى الكافرون بالقرآن دليلا من كتب المسلمين على كذب القرآن. وأنت تعلم الآن أن تلك الكلمات عربية، ولكن على أي حال، فلا واحد ذكر لنا أن القرآن استعمل تلك الكلمات بغير معناها، ولنسلّم جدلا أنها ليست عربية، ولكن استعمالها بمعناها كان متماشيا متوافقا مع المعنى المقصودة من الجملة، فلنتماشى مع قولهم، ولنسأل: إن لم يكن هذا الكتاب من مصدر إلهي، فما معنى تأليفه باستخدام كلمات من مختلف اللغات وبمعناها الصحيح؟ هذا يعني أن محمّد ابن عبد الله معجزة في اللغات، لأنكم تقولون أنه هو من ألّف هذا القرآن ووقع في خطأ القول عنه أنه عربي بينما استعمل فيه كلمات أجنبية من عدة لغات وبشكل دقيق وصحيح! وكما ترى

فهذا مستوى تفاهتهم التي لا يكترثون بها.
لمزيد من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراستنا للآية 21 من سورة الإنسان "عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ..."، والآية 47 من سورة الصافات "لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ"، والآية 3 من سورة الزخرف "إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ".

(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ{13})

شرع لكم، وضع لكم "أيها المخاطبون بهذا القرآن" بشكل معلن ما تلتزمون به، ما تسيرون عليه كلكّم من حلال وحرام وواجب... من الدين، مما تدينون به لربّكم سبحانه، فهو إلهكم وخالقكم وتبعات ذلك أن تطيعوا أوامره، فمن التبعات التي عليكم كونكم عبيده سبحانه أن تطيعوه فيما أعلنه سبحانه لكم مما وصلكم منه ما هو حلال، حرام، واجب، وحكمة... ما وصّى به نوحا، فقد صدرت منه تعالى أوامر لنبيّه نوح (ع) بفعل أمور وترك أمور... وصار واجبا عليه(ع) الالتزام بها، وهذه الأمور هي الشريعة، وما في هذا القرآن من تشاريع فجزء منه كان هو نفسه سابقا قد شرّعه تعالى لرسوله نوح(ع).
والذي أوحينا إليك، ومضافا لما وصل من شرع للرسول نوح(ع) فهناك شرع أوصلناه مباشرة إلى فكرك ووعيك أيها الرسول محمّد(ع)، ومعلوم أن الكلام عن هذا القرآن.
وما وصيّنا به إبراهيم وموسى وعيسى، فأول شريعة على ما يبدو من عموم القرآن هي الشريعة التي نزلت على الرسول نوح(ع)، والشرائع التي نزلت من بعده (ع) وكما يبدو من القرآن فقد نزلت فقط على الأنبياء: ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وآخر

شريعة نزلت على النبي محمّد(ع)، والقرآن قد ميّز هؤلاء الأنبياء الرسل الخمسة بتمييزهم في الآية السابعة من سورة الأحزاب من بين كل بقية الأنبياء بأنه تعالى أخذ منهم ميثاقا غليظا مختلفا عن ميثاقه تعالى مع بقية الأنبياء "وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا"، وذكر القرآن مرارا بطرق مختلفة أنهم (ع) هم فقط نزلت عليهم شرائع.
الآية هنا تقول بأنه سبحانه قد شرع من الدين لنا نحن كآخر أمّة، فشرّع لنا مما نزل على هؤلاء الأربعة السابقين وبالذي أوحاه تعالى إلى الرسول محمّد(ع)، وتعلم من القرآن بوجود تشاريع أساسية لم تختلف بين كل التشاريع الإلهية التي نزلت سابقا، وعنوانها الأساسي الصلاح في العبادات والمعاملات، وعناوينه الصلاة والزكاة وبرّ الوالدين وحرمة الزنا والسرقة والكذب والغيبة... فهذه كانت في الشرائع القديمة وبقيت شرعة لنا، وهناك تشريعات ألغيت كحرمة شحوم الأنعام وحرمة العمل يوم السبت... وهناك تشريعات جديدة نزلت على الرسول محمّد(ع) كحرمة البيع في وقت صلاة الجمعة، وتحديد شهر رمضان للصوم...
لا تبحث عن تشاريع كثيرة مختلفة لأنها غير موجودة، بل هناك القليل النادر من التشاريع الحديثة، ورغم ندرتها فقد استعملت الآية هنا تعبيرا دقيقا لتخبرك عن فرق "ولو قليل جدا" بين التشاريع القديمة والحالية، والآية أصلا لم تقصد الإشارة للفرق بين التشاريع بل قصدت إخبارنا عن الامتداد التاريخي لوصاياه التشريعية سبحانه لنا كدين لنا عبر هؤلاء الرسل الخمسة الموزعين على التاريخ.
أن أقيموا الدين، فهذا التشريع الذي نزل وهو دين لكم وليس للعرض عليكم فقط، فلم ينزل لتقرؤوه وتنسوه، بل لتقيموه لتفعّلوه ولا تعطّلوه، ولا تتفرّقوا فيه، ولا تصيروا فرقا فتنقسموا لأديان ولمذاهب ولطوائف، بل كونوا كلّكم على الدين الإلهي بحسب ما يقوله لكم آخر رسول إلهي، فهذا هو الأمر الإلهي لكم، وهذا التفسير العملي لولايتكم له تعالى باتباعكم لدينه المحدّد لكم وبوجوب اتباعنا نحن كلنا الآن لما أوحي إلى الرسول محمّد(ع).
كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، فالذين جعلوا له تعالى شركاء

في الألوهية والوهم، قد كبر عليهم دعوتك لهم، إشهارك إعلانك لهم باتباع شريعة هذا الدين، فرأوا أنفسهم أكبر من اتباع دينه تعالى ذي الامتداد التاريخي السحيق لآلف من السنين من تاريخ البشرية، وما اخترعوه يرونه أفضل وأنسب!
الله يجتبي إليه، يختار ويضمّ إليه، من يشاء، فمن بين الخيارات العديدة من الناس أمامه تعالى، اختار سبحانه ضمّ المؤمنين واعتبارهم تابعين له، ويعتني بهم بشكل خاص، ويهدي إليه، يضع سبحانه على الأشياء الصحيحة التي توصل إلى رضاه، من ينيب، من يترك كل شيء ويرجع في أموره إلى الله تعالى، فهذا سيهديه تعالى فيدلّه على الطريق الصحيح، عبر الشرع الذي ينزله على رسله.
لا زلنا في الحديث عن ولايته تعالى، ونقف هنا مع الآية أمام اتباع الشرع الإلهي كتفسير عملي للولاية لله تعالى، فمن والاه تعالى سيتبع شرعه، ومن لم يواله فقد كبر عليه اتباع الشرع الإلهي، وأي تصرّف يقوم به على نيّة مخالفة شرعه تعالى فهو عمليا مشرك، سواء اتّبع شرع أناس اعتبرهم آلهة أو اتبع الشيطان أو اتّبع شريعة أناس يعتبرهم علماء مثقفين، أو اتّبع شريعة نفسه وهواه... فعمليا كلّ هذا شرك، وقد جعل نفسه مواليا لغيره تعالى.
ننتبه، ولا نمرّ على الأمر الإلهي بإقامة الدين وترك التفرّق فيه مرور الكرام وكأن الموضوع لا يعنينا، بل نحن الآن في صلب الموضوع، فقد تفرّقنا عن دينه تعالى وصار لنا دين اليهودية ودين المسيحية ودين الإسلام... وتفرّقنا عن ديننا وصرنا مذاهب وطوائف، وكما هي حال الذين سبقونا، فكلّ مذهب وطائفة قد حسمت أمرها أنها على حق ويجب على البقيّة ترك مذهبها! وهذا رأس الشيطان، فبدل أن نتخلّى كلّنا عن مذهبنا ونعلن أننا فقط وفقط على دين الإسلام، والبقية مسلمون ولكن لهم آراء مختلفة، ونمنع أنفسنا ونمنع الناس عن اتخاذ أسماء خاصّة بها تميّزها عن بقيّة المسلمين، ونتوقّف عن التفرقة ونتوقف عن وضع حدود مع الآخرين... بدل كل هذا ترانا نصرّ على التشاحن والفرقة والبغضة... والأنكى من ذلك، أننا نفعل هذا تحت اسم الدين وواجبنا أمامه تعالى للدفاع عن مذهب الحقّ وعن الدين

الحقّ لأن الآخرين حرّفوه! علما أنه تعالى قد منعنا من التشاحن والبغضة والتفرقة! ومنعنا من التعصّب والتحازب الديني...
الأنكى من ذلك أن كل جماعة تدّعي أنها على حقّ في العقيدة والتشريع وعلى البقية اتباعها! ولن تجد جماعة من تلك الجماعات يجتمع أفرادها على رأي واحد في عموم الشريعة والعقيدة! وداخل كل جماعة تشريعات مختلفة! تجدها هي نفسها التشاريع التي تذكرها الجماعات الأخرى! ومن النادر أن تجد جماعة تنفرد بشيء لم تقله الجماعات الأخرى! ورغم هذا الاتفاق غير المعلن على الاختلاف فيما بين كل جماعة على التشريع، إلا أنهم يرفضون القبول بما تقوله الجماعات الأخرى! ويصرّون أن مذهبهم الحقّ!
بقي شيء، فقبل النبي نوح(ع) ألم يكن هناك شريعة؟ ونحن نعلم أن أوّل من تأهّل من البشرية ليتكلّف بدينه تعالى كان آدم(ع)، وبينه وبين النبي نوح(ع) مئات أو آلاف من السنين، فهل مرّت تلك الفترة بلا شريعة؟ بالتحليل فأول ما يخطر بالبال هو واقع الحال، لأنه من المشهور في تاريخ ثقافتنا الدينية نزول الوحي الإلهي على العديد من الأشخاص بين آدم(ع) ونوح(ع)، فعبرهم كان يصل دينه تعالى للناس، ولكن واقع حال تكتّل ذرية آدم(ع) "أول من تكلّف" وصولا إلى صيرانهم مجتمع أو مجتمعات، وهي الفترة التي استغرقت حتى صار من أولاد وأولاد... آدم(ع) عدد كبير متجاورون في السكن، فبعد هذا الواقع نتج تعقيدات عن العلاقات البشرية المستجدة من نمو العدد وتعاملاتهم، وهذه المستجدات من تبادل وتجارة... وسلوكيات وأخلاقيات وأدبيات... وحلّ خلافات ونزاعات... من بعدها صار لنزول شريعة إلهية معنى تطبيقي يفهمه الناس، ليكون كلامه تعالى مقوّما لما جعله فينا من قابلية تمييز الخير من الشرّ والفساد من الصلاح... وهكذا نفترض وجود حالتين، حالة تأهّل أول بشري للتكلّف بدينه تعالى، وحالة احتياج أول مجتمع للتكلّف بشريعة تنظّم شؤونه...
وكلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، وهي ليست اصطلاحا مخصّصا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الاسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، لأنها عامّة تبعات شيء ما

على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، لأن خلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعا بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...
لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".
بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة.
هنا في الدنيا أيضا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبا بحكمته فقد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ{14})

وما تفرّقوا، وما صار الناس فرقا كل فرقة لوحد، أديانا: يهود مسيحيين مندائيين أيزيديين... ومذاهب كاثوليك وارثوذوكس وشرقيين وغربيين... ومشركين: عبّاد أصنام عبّاد أشخاص... وعلمانيين و... إلا من بعد ما جاءهم العلم، بغيا بينهم، فكل منهم قصد بفعله الاختلاف عن الآخرين. بعبارة أخرى: تفرّقهم عن الدين الإلهي عمل قصدوه رغم مجيء العلم إليهم، رغم مجيء تشريع إلهي هم

بغو وتفرّقوا، فلم يتركهم تعالى جهلة لا يعلمون ما هي أوامره ونواهيه كما أخبرنا في الآية السابقة، حيث مدة بعد مدة جاء وحي لرسول بتشريع... ولكنهم أصرّوا على الانقسام فرقا!
ولولا كلمة سبقت من ربّك إلى أجل مسمّى، فقد قال المسؤول عنك من مستوى إلهي كلمة وهي أنه تعالى لن ينهي حياة البشرية ويعاقب الناس فورا على تفرّقهم عن دينه بل سيتركهم إلى أجل إلى موعد زمني لنهاية تركهم بلا حساب، مسمّى، محدّد معلوم تاريخه عند الله تعالى وحينها سيحاسبهم، وذلك في يوم القيامة وما بعده، ولولا ذلك، لقضي بينهم، لحصل فورا ما يجب أن يحصل بينهم، لكان سبحانه أصدر قضاءه بحكمه بين الفرق المختلفة فورا حين تفرّقهم.
بعبارة أخرى، فسبحانه سيترك البشرية تكمل الحياة الدنيا حتى النهاية مهما فعلوا، فإذا كفروا به تعالى أو أشركوا وتفرّقوا عن دينه... لن ينهي سبحانه الحياة الدنيا قبل وقتها ليحاسبهم ويجازيهم، بل سيترك الدنيا تستمر إلى حين الوقت المعلوم له تعالى لانتهائها لتأتي الآخرة، وهذه هي الكلمة التي قالها سبحانه ولن يغيّرها.
وإن الذين أورثوا الكتاب، انتقل إليهم الكتاب الإلهي وصار لهم، من بعدهم، من بعد الأجيال الأولى التي نزلت عليهم الكتب، فأناس ورثوا شريعة الرسولان نوح(ع) وإبراهيم(ع)، وأناس ورثوا شريعة الرسول موسى(ع) التوراة، وأناس ورثوا الإنجيل شريعة الرسول عيسى(ع)، فهم، لفي شكّ منه، مبدئيا ومن تفكير سطحي يرفضون الكتاب الذي ورثوه، مريب، فلديهم ردّة فكر أولية رافضة لصحّة تلك الكتب.
ضع في بالك أن جملة "شكّ مريب" تشير لسماعك عن شيء ما، وأول ما يخطر ببالك عنه بتكذيبه هو الريبة، فهو ردّة الفكر الأولية، أي الإحساس بكذب الشيء، وبعدها التفكير فيه للحظتين وأكثر من دون التعمّق أو الاستناد لشيء والنتيجة هي حالة الشكّ بما سمعته، سواء تشك بصدقه أو تشك بكذبه، والشك المريب هو تكذيب ما سمعته لمجرد سماعه ومبدئيا فكريا ترفضه. كحالة سماعك لجملة: صديقك فلان سرق. ومن معرفتك به فأوّل ما سيخطر ببالك تكذيب الخبر، ووصف هذه الحالة أنك مرتاب بصحة الخبر، وبعد إعادة ما

سمعته في فكرك مرة ثانية، وصف حالتك أنك تشكّ بصحة الخبر.
طالما لم تدرس الموضوع ولم تستند إلى أدلة تؤكّد كذب أو صدق الخبر فأنت في حالة شكّ مريب، أنت في حالة ردّة الفكر الأولية والثانية قبل أي دراسة أو استناد لحقائق.
بعبارة أبسط، فمن دون دراسة عقلانية لتلك الكتب الإلهية هم يعيشون حالة الشعور بأن تلك الكتب ليست إلهية.
هنا السورة تخاطب كلّ الناس، وتنبّههم على وجوب ولايته تعالى لوحده فقط، وبعد كلامها مع عموم الناس وخصوصا المشركين، عرّجت لتنبيه من ورث كتابا من الكتب الإلهية، لأن بعضهم لا يوالونه تعالى بالرغم من وجود كتاب إلهي معهم وصاروا منسوبين للكتاب الإلهي كوارثين له، والسبب أنهم فقط منتمون بالاسم لكتاب إلهي ولديهم شك مريب به وليسوا مؤمنين حقا به.
سبحانه يعرض الأمور بشفافية وبصراحة ووضوح، وهذا شيء قد لا ننتبه له عادة، حيث لا ترى القرآن يحابي أي أحد على حساب الحقّ، بل يتحدّث عن المشركين الفعليين والعمليين، وفي نفس الوقت يتحدّث عن أهل الكتاب المؤمنين الحقيقيين وعن أهل الكتاب الذين ورثوا الكتاب ولم يؤمنوا به، وصاروا موالين لغيره تعالى مثلهم مثل المشركين.
لا يهمّه تعالى إن قال حقيقة مشاعرهم وأفكارهم اتجاه الكتاب الذي ورثوه، فنحن في حياتنا العادية نعتبرها تبخيس وتنقيص بجماعتنا، أمّا سبحانه يعرض الأمور بحقيقتها، حتى لو كان تقريعا أو ذمّا بمنتسبين لدينه، فالذين ورثوا الكتاب الإلهي بعضهم يشكّون بريبة فيه.
انتبه جيدا، قبل نزول القرآن لم يكن المسلمون قد ورثوا الكتاب، وبعدها صاروا يوصفون بأنهم ورثوه، ويمكنك أن ترى من نفسك ومن حولك ورثة القرآن وهم عامّة المسلمين من حولك، وعندها ستنتبه أنهم شبه التمام مع ورثة التوراة والإنجيل، ومنهم من آمن به، ومنهم من تلاعب بمعانيه، ومنهم من هجره، ومنهم من اعتبره للبركة فقط، ومنهم من نبذه، ومنهم من أعلن مخالفته كله أو بعضه، ومنهم من أنكره كله أو بعضه... وغالبيتهم يقولون عن أنفسهم: مسلمون.

هنا الآية تتحدّث عن أهل الكتاب الذين سبقونا أنهم ورثوا كتابهم ولم يتبعوه بالتمام لأنهم في شك منه مريب، كتنبيه لنا حتى لا نكون مثلهم، وللأسف لم ينفع التنبيه.
انتبه أيضا وأيضا، أن السورة ليست مخصّصة لأهل الكتاب وما وقع من تحريف في كتبهم وفي الدين الإلهي... فهذه أمور تناولتها بالتفصيل سورة البقرة وآل عمران وغيرها من السور العديدة، ولكن السورة هنا عرّجت على أهل الكتاب في هذه الآية لتخبرنا عمّن لم يواله تعالى من كل أنواع الناس، سواء المشرك علنا أو المنتسب بالاسم لكتاب إلهي ولديه شك مريب به.
هكذا تفهم جملة "شك مريب" لديهم بالكتاب الإلهي الذي ورثوه، ولو أنهم لم يحرفوه ولو درسوه بدلا من الاعتماد على الريبة والشك، لوجوده حقّا وصلاحا، ولكنهم لا يريدون الحق والصلاح ولذلك يبقون على الشك المريب بدون دراسة.
ولا يغب عن بالك أنه تعالى في العديد من السور أقحم كلاما عن أهل الكتاب بينما كانت السور توجّه كلامها للمشركين، والسبب وجود حالة عند أهل الكتاب مشابهة لحالة المشركين، ولم يخفها أو يسترها تعالى، بل ذكرها ولم يحاب المنتسبين بالاسم لدينه سبحانه...

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ{15})
فذلك، للّذي شرّعه لكم تعالى، فادع، أعلن وأشهر للناس، قل لهم أن يتبّعوا ما يوحى إليك، واستقم كما أمرت، كن موصوفا بأنك على الأحسن فلا تنحرف أنت أيها الرسول محمّد(ع) عن الأوامر التي تلقيتها، بل كن عليها بشكل مستقيم فنفّذها بالتمام، ولا تتّبع، ولا تكن على، أهواءهم، ما يرغبونه وما يحبونه من دون الرجوع إلى أوامره تعالى، فالناس قد يمشون على هواهم السيء في حلالهم وحرامهم وعقائدهم... فلا تكن على خطاهم بل استقم على الأوامر الإلهية.
لاحظ القرآن يخاطب الرسول محمّد(ع) بنفس اللهجة التي يخاطب

بها كلّ الناس، ويعتبره مميزا فقط حين يكون مميزا، مثلما مدحه لأخلاقه العالية "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" في الآية الرابعة من سورة القلم، ولكن حين يكون الكلام عن طاعة الله تعالى ترى الكلام الإلهي معه (ع) بأوامر صارمة جدا، حتى نفهم جميعا أنه لا يوجد أحد مستثنى من هذه الأوامر الإلهية أو مستثنى من العقاب على مخالفتها، والمتميّز متميّز بالطاعة والإيمان فقط، وحتى لو كان محمّد(ع) حاملا للرسالة، فهذا لا يعطيه أي خصوصية تميّزه عنّا فيما يتعلّق بتطبيق أوامره تعالى، لأنه ليس مثل الملك وحاشية الملك والمقربين منه الذين يصيرون فوق القانون.

وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأعلن أيها الرسول لمن حولك من الناس أنك معتقد بصحّة الكتاب الذي أنزله تعالى عليك وعلى من سبقك من الرسل.

الكتاب "القرآن" نزل عليه (ع) ولكنه (ع) مثله مثلنا مأمور بالإيمان بالكتاب، وإذا فكّرنا بأن الكتاب ينزل عليه(ع) ومن المفروض أن يؤمن به، فلماذا تقول الآية شيئا هو تحصيل حاصل؟ إذا قلنا هذا فنحن لم نفهم ما كرّره القرآن مرارا، لأن نزول الوحي على شخص ما، لن يسبّب له الإيمان، وفرضا لو نزل الوحي على كافر لا يريد أن يؤمن، فلن يتغيّر أي شيء بالنسبة للكافر، وسيرفض ما يصله إلى فكره ووعيه ولن يؤمن به، لأنه لا يتماشى مع فكره ونفسيته، وسيبحث عن طريقة لتوقّف وصول الوحي إلى وعيه... ونفس الشيء نزول الوحي عليّ وعليك الذين لن يزيد من إيماننا بدينه تعالى، بل سنبقى كما نحن على حالتنا من بعدما قرأنا الوحي عن الورق أو سمعناه بآذاننا.

من المبادئ الأساسية التي يطرحها القرآن هي حالتنا الأساسية نحن، الفكرية والنفسية والسلوكية... وتماشيها مع دينه تعالى أو تعارضها معه، وإذا سمعنا كلامه تعالى وبأي وسيلة كانت، فأساس ما نحن عليه سيحسم مبدئيا موضوع إيماننا أو رفضنا للذي وصلنا، وفرضا ولو بأي طريقة وصل كلامه تعالى إلى أبي جهل، وهو شخصية تاريخية عاصرت النبي محمّد(ع) واشتهر بكفره وعناده وحربه للدين الإلهي وللرسول(ع) وللمؤمنين، فلو سمع أبو جهل في وعيه مباشرة كلامه تعالى، ونزل عليه الوحي، فهل كان سيؤمن؟ لا، بل

كان سيجنّ جنونه مما يسمعه ولا يطيقه ويكرهه، ويحاول بأي طريقة ممكنة إيقاف تلقيه للوحي...
لنلتفتّ إلى أنفسنا وأنت تعلم أن الغيبة سوء وحرام عليه عقاب، والكذب مثلها، والمبالغة في الكلام مثلها، والمذهبية والفرقة مثلها... هذه المعلومات في فكرك ووعيك، تماما مثل وصولها إليك عبر الوحي، ولكن، هل وجودها في وعيك وفكرك يجعلك معتقدا ملتزما بها؟ لا، بل قرارك أنت باتباعها والتماشي معها يجعلك مؤمنا بها، ونفس الشيء بالنسبة للنبي محمّد(ع)، فنزول الكتاب عليه لن يجعله مؤمنا، بل تماشي فكره ونفسيته مع ما يصله، وقراره باتّباع ما يصل إلى فكره ووعيه من معلومات وتطبيقه لها، هما ما يجعلانه مؤمنا بالكتاب.
من المفيد هنا إضافة ما درسناه في الاية الثانية من سورة البقرة "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ" حول أساس فكر ونفسية كل واحد منّا، وبناء عليه موقفه من الحقّ والباطل، من الهدى والضلال، فيكون هذا الكتاب هاديا له إن تماشى مع قلبه السليم، أو كافر به لأنه لا يتماشى مع قلبه المطبوع بالعمى...
نرجع للآية، وقل أيها الرسول(ع): أمرت، فوصلني أنا الرسول محمّد(ع) أمر منه تعالى، لأعدل بينكم، فأنتم لديكم أفكار وسلوكيات متفرقّة متخالفة، ووظيفتي أن لا أنحاز لأحد منكم أو لأهوائي، وأن لا أترككم منحرفين عن الخط الإلهي، بل أقيم العدل بينكم، فأقول لهذا أنت ظالم باعتقادك، وأقول لذاك أنت ظالم بتصرفاتك... وأعرض عليكم العقيدة والسلوك الصحيح.
من هذا الكلام يمكنك رؤية ما كررناه مرارا عن أنه تعالى لا يعرض علينا في قرآنه دينا غريبا عجيبا، بل بكل وضوح وصراحة يعرض علينا أن نكون مؤمنين بالحقّ، بالمعلومات الصحيحة عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته، وأن نكون صالحين، وها رسوله تعالى مأمور بالعدل، وتصرفه العملي سيكون دليلا على أنه رسول إلهي يريد الإصلاح والصلاح لنا، فما معنى الكفر به ومعارضته إلا الرغبة في الفرقة والبغي من بعدما صار لدينا مصدر "إلهي" يحدّد لنا الحقّ من الباطل؟

الله ربنا، كمؤمنين فصاحب الاسم المميّز المحدّد "الله" هو المسؤول عنّا من مستوى إلهي، وربّكم، وهو نفسه المسؤول عنكم من مستوى إلهي، فهناك ربّ من مستوى إلهي واحد أحد ولا ربّ غيره، أعجبكم أم لم يعجبكم، اقتنعتم أم لم تقتنعوا فهذه الحقيقة لن تتغيّر، ومما سبق ومن تكملة الآية نفهم أن الربّ الواحد للكل يعني: سنتحاسب كلّنا عند نفس الربّ الذي أرسل رسله بكتبه للجميع، وهو ليس ربّا للمسلمين فقط، وليس للعرب، وليس لليهود ولا للنصارى... وليس لكم ربّ خاص بكم... لا، بل الربّ واحد للكل، والحساب عنده للكلّ.
سنفهمها بشكل أسهل إذا فكّرنا في مشرك يقول: هذا الذي يقول أنه رسول من الله ويحمل شريعة ودعوة لأتباعه... فلا علاقة لي به، لأن ربّي غير ربّه، وربّه سيحاسب أتباعه وربي سيحاسبني... وهذه العقيدة عادية عند المشركين الذين لا مشكلة عندهم مع الأقوام الآخرين الذين لديهم آلهة مختلفة عن آلهتهم، على أساس أنه لكل قوم آلهة خاصة بهم...
ترى بشكل محوّر ومخفي نفس العقلية عند الذين يسمّون أنفسهم بالعلمانيين أو الملحدين "الذين باصطلاحنا الحالي هم يكفرون بكل الأديان"، الذين بشكل أو بآخر يتعاملون مع الإيمان والحساب في الآخرة كالمثل "غير الصحيح" الذي يقولونه عن حيوان النعامة الذي يضع رأسه في حفرة، على أساس أنه إن لم ير العدو فالعدو لن يراه، علما أن هذه المعلومة عن النعامة غير صحيحة ولكنها مثل، فتفهم شيء لا عقلاني من طيّات كلام العلمانيين، حين يقولون أنك أنت كمتدين ستموت وتتحاسب في الآخرة لأنك مؤمن بها، بينما هم سيموتون وتنتهي قصّتهم وربّك لن يحاسبهم لأنهم ليسوا تابعين له، وإن كان هناك آخرة، فرضا، فلديهم العديد من التبريرات الجاهزة كأعذار لكفرهم... والتي ذكرها لهم القرآن من الآن ليخبرهم أنها لن تنفعهم...
لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ليست أعمالنا نحن المؤمنون المستقيمون على دينه تعالى متساوية مع أعمالكم، بل مختلفة، كما نقول لمن اختلفنا معه في العمل على زراعة الشتول: إعمل على طريقتك وأنا سأعمل على طريقتي. فغير المؤمنين يقولون: ما الفرق بيننا وبينكم؟

وما الذي سيجعلنا متميزين إن آمنّا؟ وهل تختلفون عنّا بالصلاة والصوم... وما قيمة هذه الأعمال؟ ستفهم هذا الكلام إن تلبّست بعقلية غير المؤمن، الذي لا يرى فرقا مهمّا بينك وبينه، بل يراك بسيطا متخلّفا بسبب تضييقك على نفسك بالحلال والحرام والواجب... بينما هو مرتاح ويفعل ما يهواه... تأتي الآية هنا لتخبره بوجود فرق لصالح المؤمنين المتمسكين بعملهم وغير المستعدين لتبديل أعمالهم التي يرون لها قيمة عالية، وتخبره أن الأعمال المختلفة لها نتيجة مختلفة، فمن آمن وعمل صالحا فعمله له وهو يستفيد منه، ومن أشرك وأفسد فعمله عليه عقاب وهو لوحده سيتحاسب ويتجازى عليه.
لا حجّة بيننا وبينكم، فالحجة هي ما تستعمله كبرهان لتثبت صحّة شيء ما، والفرق بين إيماننا وإيمانكم وأعمالنا وأعمالكم واضح، ولا يوجد أي شيء كبرهان على تساوي إيماننا وعملنا معكم، فلا يوجد معكم ومعنا حجّة متعارضة، وحججكم عن المشابهة بيننا وبينكم، كوننا متدينون بدين وأنتم بدين آخر أو أنتم بلا دين، وأن كلينا متشابهان... فهذه حجّة غير مقبولة ويبقى الفرق بيننا كما هو، لأننا مؤمنون بمعلومات صحيحة ونفعل الصالح من الأعمال ونترك السوء... ولنا ثواب حسن، وأنتم لم تؤمنوا وفعلتم السيئات ولكم عقاب.
الله، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، يجمع بيننا، فالآن تخالفوننا وتعارضوننا ولا تفعلون مثلنا، ولكن سيأتي زمان يجمعنا تعالى فيه، وذلك في الآخرة، وهناك تعلمون الفرق بين إيماننا وعملنا وكفركم وعملكم. سواء آمنتم به تعالى إلها أحدا أم لم تؤمنوا، فهناك شيء محسوم سيحصل، حيث بعد موتنا سيجمع تعالى بيننا كلّنا من جديد.
ضع في بالك أيضا أن المشركين عموما كانوا متساهلين في العقائد، فإن سمعوا بقوم مشركين يعتقدون أن آلهتهم تعيد إحياءهم لمحاسبتهم، أو تنقلهم إلى عالم الأرواح... كانوا لا يناقشوهم ليثبتوا أن عقيدتهم غير صحيحة، بل بكل بساطة يعتبرون هذه العقيدة صحيحة ولكنها لا تنطبق عليهم لأنهم لا يعبدون تلك الآلهة، وما سيحصل مع المؤمنين بتلك الآلهة فسيحصل معهم لوحدهم ولن يحصل مع بقية الناس، لهذا تأتي آيتنا هنا وأمثالها لتخبرهم أن قرار الله تعالى سار وسيجري على من آمن أو كفر به تعالى، لأن الكلّ سيجمعهم سبحانه

ليحاسبهم.
نفس الكلام مع العلمانيين والملحدين، حيث كفركم بالآخرة لن يغيّر أي شيء، لأن ربنا هو ربكم، وسيجمع الجميع بدون استثناء في الآخرة، وسيجمع حتى الذي لم يؤمنوا به سبحانه ولا بالآخرة.
وإليه المصير، آخر ما تصل إليه الأمور وخاتمتها، إلى الله تعالى، فما يجري هنا في الدنيا له نهاية، وما حصل لن يموت بموتنا وينتهي، لا، بل كلّ الأمور مصيرها وخاتمتها إليه تعالى، فالوقوف بين يديه تعالى لمحاسبتنا حتمي وسيحصل.
أي فكرة في بالكم عن الاستسخفاف بأهمية ما أقوله عن الإيمان بالكتاب والعمل به، هي متحطّمة أمام حتمية الرجوع إلى الله تعالى لمحاسبتنا ومجازاتنا.

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ{16})
والذين يحاجّون في الله، فيقولون كلاما ليبرهنوا على بطلان توحيده تعالى وفساد اتباع دينه، من بعد ما استجيب له، من بعدما كانت ردّة فعل المؤمنين الطاعة لدعوة الرسول(ع) إلى دينه تعالى، فهؤلاء المحاججون، حجّتهم، كلامهم عن البراهين، داحضة، زلقة غير ثابتة فهي مردودة مغلوبة، مثلما نقول بالعامية: برهانينهم فراطة وفالصو، عند ربّهم، عند المسؤول عنهم من مستوى إلهي.
هنا في الدنيا يحاججون ليبرهنوا أن الدعوة لدينه تعالى عبر ما يقوله الرسول محمّد(ع) وقرآنه ليسا صحيحان، وفي نفس الوقت الذي لم يؤمنوا فيه فهناك غيرهم ممن استجاب لدعوته تعالى وآمن، وهؤلاء كان من الواضح لهم صحّة دينه تعالى وبناء عليه آمنوا، والنتيجة أن الذي لم يؤمن، لا عذر له فحجّته داحضة عنده تعالى.
في الآخرة عندما يقفون بين يدي ربهم سبحانه، ماذا سيفعلون؟ هل سيعرضون حججهم وبراهينهم ليقنعوه تعالى بأن دينه لم يكن صحيحا؟ أم هل سيقولون له تعالى أن الدعوة لدينه كان فيها عيب ولم تكن واضحة ولم تكن مقنعة وكان لدينا حجج على فساد دينك؟ هنا

الآية تنبّههم أن الدعوة لدينه تعالى واضحة ومقنعة وأي حجّة يخترعونها لا قيمة لها لأنه يوجد أناس قد استجابوا للدعوة وآمنوا، فإذا هي واضحة ومقنعة بدليل إيمان البعض بها، وبراهينكم وحججكم عن فساد الدعوة، أو أنها ليست واضحة، أو لم يتم طرحها عليكم بشكل صحيح... فهي حجج مدحوضة زلقة لا تثبت ولا تبرهن أي شيء، ولا قيمة لها، وبالتالي تستحقون عقابه الشديد سبحانه.
وعليهم غضب، ولهم السوء منه تعالى بسبب رفضه وكرهه لما فعلوه، ولهم عذاب شديد، ولهم ضرر لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه.
نلاحظ القرآن كرّر هذا المفهوم في سوره المختلفة، ونفهم أنه سبحانه عرض علينا الدين بشكل واضح "بيّن"، ومقنع "لا ريب فيه"، ويوم القيامة لا يمكن لأي شخص أن يقول: كان دينه تعالى مشوشا عليّ ولم أفهمه بشكل صحيح لأنه غير واضح وغير مقنع، فلا يحق لكم أن تحاسبوني على كفري به لأن الخطأ لم يكن خطئي... لا، هذا لن يحصل، لأن كلامه غير صحيح، فما معنى إيمان أناس غيرك؟ وكيف رأوا دينه تعالى واضحا ومقنعا وأنت لم تره واضحا مقنعا؟ وهذا ما تقوله الآية هنا. من ناحية ثانية فهل سيقف بين يديه تعالى في الآخرة ليقنع الإله بأن دينه لم يكن واضحا ولا صحيحا؟ وهذا ما يمكن أن تشتقّه من الآية وستراه في الآية التالية.
لا تنسى أن كلّ القرآن بغالبية سوره وآياته، هو آيات، هو أمور مميزة كدلائل وعلامات على دينه تعالى، وعندما تقرأها وهي تلفت انتباهك لخلقتك وللظواهر من حولك كالليل والنهار والنبات... فهي آيات، وفي حياتك وبدون القرآن فإن نفسك وما حولك هم آيات تدل على الإله سبحانه، فلا تنسى أن القرآن لم يعتمد فقط على احتجاجه بإيمان بعض الناس على صحّة الدين، ولم يقل: طالما آمن بعض الناس، فالدين كان واضحا ومعروضا بشكل صحيح. لا، لم يعتمد على هذه النقطة بالأساس، بل عرض كل أنواع الآيات التي تدل على صحّة الإيمان بالتوحيد... وصلاح التشريع، وفي الكتب التي نزلت على الأنبياء، وفي نفسك، وفيما حولك، وفي حياتك، وفي كلام الأنبياء والرسل، وفي كلام المؤمنين... وبعد ذلك يخبرنا تعالى بأنه لا حجة

لمن رفض تلبية الدعوة الإلهية الواضحة والتي عليها دلائل كثيرة متنوّعة وأكثر من كافية... وها غيره قد لبّاها وآمن، فأي عذر له حتى لم يؤمن؟

(اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ{17})

عندما يحاججون الرسول محمّدا(ع) ولا يؤمنون بالكتاب النازل عليه، ويعارضون محتوى القرآن، فهم عمليا ماذا يفعلون؟
الله، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز جلّ جلاله، الذي أنزل الكتاب بالحقّ، فهذا الكتاب لم ينزله ليتسلّى سبحانه، وليس فيه كلام باطل أو كذب، ولم ينزل حتى لا نتبعه ككتاب لا قيمة له أمام ما نقوله نحن، أو للبركة والوضع على الرفّ... بل نزل من عنده جلّ جلاله بالحقّ بالصواب، والميزان، فمحتواه مضبوط، ليس فيه زيادة ولا نقصان، ولا ميل فيه عمّا هو مضبوط صحيح، مثلما تقول أنك وزنت قفص الليمون فهو موزون، فوزنه معروف بدون زيادة أو نقصان. ومثلما نقول: زان الأمور بعقله... وكذلك القرآن زانه تعالى بالميزان الإلهي قبل أن ينزل، فكل ما فيه على المسطرة، بلا زيادة ولا نقصان، بلا ميلان عمّا هو مطلوب من صواب وصلاح.
عمليا هم يحاججون كلام الله تعالى؟ وهو كلام نزل بالحق والميزان، فمن يحاججون؟ وماذا يحاججون؟ وماذا يرفضون؟
وما يدريك، لعلّ الساعة قريب! فيوم القيامة من الموت هو أوّل يوم من أيّام الآخرة بالنسبة لنا، وأول ساعة فيه هي ساعة قيامنا من الموت، وبعدها أيام فيها حشرنا وفرزنا ومحاسبتنا... وآخر ساعة في آخر يوم عندما يدخل آخر واحد إلى الجنّة أو النار. وغالبا يشير القرآن بكلمة "الساعة" لزمن قيامنا من الموت لأنها التي يرفض المشركون الإيمان بها، والرسول(ع) يقول للناس بأن الساعة آتية لمحاسبتنا على أعمالنا، وهم يرونها بعيدة ولن تحصل، ولكن الله تعالى يقول بأنها حتما ستحصل، وبالنسبة لك أيها الرسول (ع) فما الذين يمنعك من افتراض وتوقّع حصولها في وقت قريب، فممكن أن

تتوقّعها وتفترض أن تحصل في وقت قريب فما يدريك أنها بعيدة؟ ويمكنك التحدّث بمعلومات عن أمور عشتها واحتككت بها، "تدري بها" أمّا إذا لم تعشها ولم تحتك بها "لم تدر بها" فكيف تتحدّث عنها بشكل حاسم وتستبعدها؟ فالساعة لعلها ستحصل في وقت قريب؟
تنفيذ التهديد للكافرين بدينه تعالى سيكون في الآخرة، وما يدريك وبالتالي فما يدريهم، لعل الساعة قريب! فالحساب والمجازاة على محاججتهم الباطلة قد يكون قريبا.
نتذكّر دائما أن القرآن أخبرنا عن الساعة أنها ليست بعيدة، لأن كل شخص يموت، وثم يفتح عينيه للمرة الثانية، سيجد نفسه في يوم القيامة، ولن يشعر بمرور الزمن أثناء موته، مثل النائم الذي لا يشعر بمرور الوقت، فحتى لو فقد وعيه لمليارات السنين، لن يشعر بمرورها، فالساعة بالنسبة لنا هي: إغماض أعيننا هنا، وفتحها مرّة ثانية هناك.
على كلّ حال، كتم القرآن على موعد تغيّر السماوات والأرض، وكتم على موعد خلقهنّ من جديد، وكتم على موعد يوم قيامتنا من الموت، وذلك لعدّة أسباب، منها أننا لا قدرة لنا على فهم الزمن حين تتبدّل السماوات، وحين ترجع كما كانت، وفي الحالة التي لا يكون فيها شيء إلا الله تعالى... فمن المستحيل علينا وحتى على الملائكة العالية(ع) أن نقيس الزمن من الآن إلى تلك المرحلة، حيث لا ليل ولا نهار لنقيس عليه الزمن "لا نقطة مرجعية للحركة"، ونصل إلى مرحلة لا يكون للزمن معنى فيها، حين يتبدّل كلّ شيء... وكما ترى فهناك استحالة لمعرفة زمنها بالنسبة لقدراتنا.
من ناحية ثانية، لا معنى لمرور الزمن على فاقد الوعي، ومن القرآن تعلم أنه سيأتي زمن صعق من في السماوات والأرض إلا ما شاء الله تعالى كما ورد في الآية 68 من سورة الزمر "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ"، ونفترض أن بعض الملائكة العالية(ع) ستبقى حيّة، أو على الأقل الملاك النافخ في الصور سيبقى حيّا، وحتى هذه الملائكة العالية(ع) لا تعرف بالضبط زمن يوم القيامة، لأنها لا قدرة لها لمجاراة علمه تعالى بذلك، فحتى لو كانت المعلومات متاحة

لهم ويرون أمورا من مستوى عال، تبقى قدراتهم أقل بكثير مما هو مطلوب لمعرفة زمن قيامنا من الموت بدقّة، وراجع في ذلك دراسة الآية 15 من سورة طه "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا...".
على كلّ حال، ما الفائدة من معرفة تاريخ الساعة؟ فإن كنت مؤمنا عليك استغلال حياتك قبل موتك لأن موتك بداية قيامتك، وإن كنت غير مؤمن فهل ستؤمن إن علمت بوقتها؟ أم سيكون التاريخ بعيدا عن زمنك وتتهم الرسول(ع) بالتهديد بشيء بعيد لن تراه يحصل؟ وسترى كلاما حول هذه النقاط في الآية التالية:

(يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ{18})

يستعجل بها، بالساعة، يريدها أن تحصل أبكر من وقتها المحدّد له، الذين لا يؤمنون بها! لأنهم لا يعتقدون بالوقوف بين يديه تعالى ولا بحسابه ولا بناره... فهؤلاء يقولون: لتحصل الآن. مع العلم أنهم الوحيدون المتضررون من حصولها.
والذين آمنوا، الذين اعتقدوا بساعة سنقوم فيها من الموت لمحاسبتنا ومجازاتنا، مشفقون منها، فيستشعرون ويعايشون بفكرهم وأحاسيسهم صعوبة حالة الوقوف للحساب والعقاب في تلك الساعة، ويعلمون أنها الحقّ، أن ساعة قيامنا من الموت ومحاسبتنا بعدها هي حقّ صواب وليست كلاما باطلا لأنها حتما ستحصل، ومن ناحية ثانية يعلمون أنها المعنى من خلقه تعالى لنا فلولاها لكان باطلا خلقنا بحرية الإرادة والاختيار من دون حساب كما تفهم من عموم كلام القرآن ومنه ما ورد في الآية 191 من سورة آل عمران "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"، وعلى نفس المقصد ما ورد في الآية 27 من سورة ص "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ".

المؤمنون ينتظرونها ولكن لا يستعجلونها لأنهم يستشعرون حالة الخوف من الحساب والعقاب، لأنهم لم يضمنوا الجنّة لأنفسهم بل يطمعون بها. الآية ترينا الفرق الكبير بين من يستعجل بالساعة لأنه غير مهتم بهذا الكلام لأنه لم يؤمن بها ولم يتحضّر لها، وبين من آمن بها ويعلم بضرورة الاستعداد لها ويخاف من تقصيره في الاستعداد.
نتذكّر من آيات عدة في القرآن وصفها المؤمنين الآن مشفقين من الآخرة، كما ورد هنا وفي الآية 49 من سورة الأنبياء "الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ"، ولكن في الآخرة هم سعداء. ووصفت غير المؤمنين بها بأنهم الآن مرتاحون ولا يشعرون بضرورة الارتباط بتحضيرات لعالم الآخرة، ولكنهم في الآخرة سيكونوا مشفقين مما يرونه من عذاب قادم عليهم من النار التي تقترب منهم، كما ورد في الآية 49 من سورة الكهف "وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ..." حيث يعايشون فكريا ونفسيا حالة الضرر التي ستصيبهم مما هو مسجل في كتاب أعمالهم، وسترى ذلك هنا في السورة بعد قليل في الآية 22.
ألا إن الذين يمارون في الساعة، والمرية وصف لعموم الكلام الفارغ التافه، من الخلاف على أمر تافه، او الجدال بشكل تافه مع الذي يرمي الكلام بدون دراسة ولا يفهم بالعقل والمنطق، أو لا يقبل الحق والمنطق فيتكلم فيه معراضا بدلا من القبول به. لأن ساعة قيامنا من الموت هي حقّ وحتما ستحصل، وعليها أدلة من مختلف الأنواع... ومن لا يؤمن بها إنما يماري، فهو يقول كلاما تافها معارضا به لحقيقة ناصعة، وهؤلاء، لفي ضلال بعيد، هم أبعد ما يكون عن الصواب.
كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، لأنها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أو شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك البندقية التي ترمي لمسافات بعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. وقد استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولذلك لن يفيدوه بشيء.

واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء "قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ".

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ العَزِيزُ{19})

الله، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، لطيف بعباده، ليس قاسيا لئيما خشنا مع الذين مفروض منهم طاعته، ولمزيد من التوسع حول كلمة عبد راجع دراسة الآية 25 من هذه السورة، يرزق من يشاء، فأمامه تعالى خيارات عديدة ويقرّر سبحانه من سيحصل على الأشياء التي يسدّ بها حاجاته ورغباته، ولا يفرض ذلك عليه تعالى أي أحد، وها تخبرنا الآية أنه بلطفه يرزق من يشاء، وهذا ليس عن فرض واجب عليه تعالى.

تذكّر الآيات العديدة التي شرحت لنا كيفية اختياره تعالى لتوزيع الرزق على عباده... حيث المؤمنون يعتني تعالى بهم حتى لا يضعف إيمانهم فإن لم يناسبهم الغنى أفقرهم... والكافرون والفاسقون والمنافقون يتركهم تعالى بلا عناية، ويكون المجال أمامهم مفتوح لجمع الثروة بكل الطرق ولا يهتم سبحانه بهم إن زاد ابتعادهم عن الإيمان والصلاح... وبعض الكافرين يقدر عليهم سبحانه حتى لا يطغوا... وبعضهم يرزقه تعالى حتى يبتلي به الآخرون... وبعضهم يمدّهم تعالى في طغيانهم...

وهو القوي، ويمكنه سبحانه فعل أي شيء بتلك القوة، فليس ضعيفا عاجزا عن رزق من يشاء أن يرزقهم، وهو، العزيز، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وهنا الكلام عن فرضه تعالى لما شاءه في الرزق علينا.

نلتفت لربط صفة اللطيف بالرزق، وستجد في الآية 27 من هذه السورة أهمّ سبب مانع من بسطه تعالى الرزق لكلّ الناس، وهو حماية

الناس من البغي.
هنا الآية مدخل للآية التالية عن السيطرة الإلهية على الرزق مطلقا، سواء في الدنيا أم الآخرة، حيث تفهمنا أنه تعالى يسيطر على زيادة حرث الآخرة والدنيا... وبالعودة لمحور السورة فهذه كلها نماذج عن معنى ولايته تعالى وأن ولاية غيره لا معنى لها، فلنكمل:

(مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ{20})

بناء على ما سبق من تحديد الشريعة التي يجب الالتزام بها من كتبه تعالى، وأن المخالفة عليها عقاب:
من كان يريد حرث الآخرة، الحرث هو تهيئة الشيء للإنتاج، فمن كان يعمل هنا كتهيئة للإنتاج في الحياة الآخرة، فيعمل حسنة هنا لينال ثوابها في الآخرة، نزد له في حرثه، فسيحصل على إنتاج زائد، وهذا ما تجده في عموم القرآن عن مضاعفة الثواب كما ورد في الآية 40 من سورة النساء "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا".
ومن كان يريد حرث الدنيا، فيعمل للإنتاج فقط هنا في الدنيا فيريد المال والأملاك... نؤته منها، فسيحصل على نتاج هنا في الدنيا، ولكن ليس جميع من حرث للدنيا سيحصل على الغنى والثروة، لأن بعض الناس أصلا حرثوا للدنيا بما يكفيهم ولا رغبة لهم بالزيادة، وآخرون رغبوا بالثروة وحرثوا لها... ولكن لا يحصل جميع هؤلاء على الثراء، بل عبّرت الآية بأنه تعالى يؤتيه منها بشكل عام، بقدر "قليلا" أو ببسط "كثيرا".
وما له في الآخرة من نصيب، وهذا الذي لم يرد حرث الآخرة ولم يحرث لها، وحرث للدنيا سواء بشكل كبير أو أقل من عادي، فليس له في الحياة التي ستأتي في الآخر من بعد انتهاء الحياة الأولى، ليس له من نصيب فلا حصّة مقسومة له، فلا ثواب له مما حدّده تعالى كأجر على الإيمان والعمل الصالح.
إذا، اللطيف الرازق قد أتاح لنا الحصول على الرزق المهمّ جدا في

الآخرة، ولكن علينا العمل للحصول عليه، وسننناله إن عملنا له "فآمنّا بالحق وعملنا الصالحات"، ومن لم يعمل للحصول على رزق الآخرة، فلا رزق له هناك.
لا تنسى أننا أمام حالة الذين ينعرض عليهم معلومات صحيحة عن توحيده تعالى... ويرفضون الإيمان بها، وينعرض عليهم فعل الصالحات وترك السوء، وهذا هو حصرا ما يشرّعه تعالى، ويرفضونه، فنحن أمام حالة من تقول له: آمن بالحقّ واعمل صالحا ولك أجرا عظيم في الآخرة منه تعالى. فيقول: لا أريد أن أؤمن ولا أريد أجارا في الآخرة فلتبقى جنّة الآخرة لكم أيها المؤمنون... وهذا لماذا سيعطيه تعالى أجارا في الآخرة؟ وعلى أي أساس سيجعله في الجنّة؟
تلاحظ دقّة تعابير الآية بالحرث، الذي هو تهيئة شيء للإنتاج، فإن لم تحرث الأرض لن تحصل على نتاج زراعي مهمّ لك منها، ونفس الشيء بالنسبة للثواب الحسن في الآخرة الذي هو نتاج ما حرثه المؤمنون هنا، ومن لم يحرث هنا للآخرة، فلن يجد أي شيء هناك.
يعني هي ليست مسألة اعتبارية، بل حقيقية بنتائج ملموسة تماما مثل الذي يحصل معنا هنا حيث لا تتوقّع نتاج من دون حرث، فهل إذا وقفت أمام أرض لم تحرثها، وتمنيت لو أنها أنتجت مثل أرض جارك الذي حرثها، فهل سيتغيّر شيء؟
كثيرا ما نسمع الناس يتحدثون في موضوع العدل الإلهي، ويفترضون من بعض آيات من القرآن، أنه تعالى يعطي ثوابا على أي عمل خير، ولأي كان، حتى لو كان فاعل الخير كافرا، وهذا غير صحيح، وآيتنا هذه واحد من عشرات تثبت ذلك.
من عموم مفاهيم القرآن نرى أن الكافر والملحد والمشرك والمنافق والفاسق، لا أجر لهم على أي عمل حتى لو فرضا نووه قربة له تعالى، لأن أعمالهم الحسنة تحبط فتفقد قيمتها، وحتى لو الملحد في لحظة ما هبّ الإيمان في قلبه وفعل خيرا قربة له تعالى، وبعدها عاد لكفره، فلا أجر له في الآخرة على ما فعله، وخذ مثلا عن ذلك ما ورد في الآية 137 من سورة النساء "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

سَبِيلًا"، فهؤلاء حين آمنوا فعلوا صالحا ما، وكما ترى فلا أجر لهم عليه لأنهم عادوا وكفروا، لأن الكفر محبط للأعمال الحسنة فيجعلها فاقدة للقيمة كما تقرأ في العديد من الآيات ومنها الاية 17 من سورة التوبة "مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ" فهؤلاء يعمرون مساجد الله سبحانه ورغم ذلك لن ينالوا عليه أجرا بسبب كفرهم...
سأختصر لك أساسيات مفاهيم القرآن حول هذا الموضوع، فسبحانه حدّد شيئا سيعطيه لمن آمن وعمل صالحا، وهذا معنى الأجر، وليس مفروضا عليه تعالى إعطاء الأجر، وهذا معنى "من فضله" فمن فضله تعالى حدّد للمؤمنين أجرا في الآخرة، والآيات التي قد توحي لك بأنه تعالى سيعطي أجرا على العمل الحسن بغضّ النظر عن إيمان فاعله، فراجع دراستنا هذه لتجد أن تفسير الآيات بهذا المعنى غير صحيح، وبناء عليه، فلا أجر إلا للمؤمنين العاملين للصالحات.
نعم، تختلط علينا الأمور وتتشابه في تحديد المؤمنين من الملل الأخرى، فلنقل أن راهبة نصرانية نذرت نفسها لعمل الخير في سبيله تعالى... فهي في كلام القرآن من أهل الكتاب، ولكن لديها مشكلة الاعتقاد بألوهية النبي عيسى(ع)، فهذا شرك، وهنا نحتار نحن في تقييم أجرها أو حبطه "صيرانه بلا قيمة"، مدفوعين بالمشاعر الإنسانية لتفرغّها لعمل الخير، امّا من ناحيته تعالى ففي الآيات 171 وما بعدها من سورة النساء "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ..." نجد ملاطفة إلهية لها لتنتهي عن شركها، مع تأكيد على العقاب إن لم تنته.

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{21})

من الآية 13 إلى هنا يتواصل الكلام عن الشرع الإلهي كتطبيق عملي للالتزام بولايته تعالى.
أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين، الذين لم يوحّدوه تعالى حتما لديهم شرع، فلديهم شيء معلن بينهم يلتزمون به، فلديهم ممنوع

"حرام" ومسموح "حلال" وواجب... لأن القتل والسرقة والدفاع عن الوطن وغيرها من عناوين القوانين... متعارف بينهم العقاب عليها ووجوب بعضها و... فهي دين لهم، هي تبعات لكونهم واعين بحرية إرادة واختيار ويتعاملون مع بعضهم... وتبعات كونهم مؤمنين بعقيدة ما "حتى لو كانت علمانية"... وتبعات كونهم مخلوقات اجتماعية بحاجة لتنظيم معاملاتها مع بعض... فهل هم شرّعوا ذلك أم لديهم آلهة شرّعتها؟ وسبحانه يقول عن آلهتهم أنها شريكة لهم، حيث بينهم وبينها علاقة شراكة عبد وإله، وليست شريكة له سبحانه لأنه الإله الأحد، فهل آلهتهم شرعوا لهم من الدين، ما لم يأذن به الله؟ بأمور معلنة للتقيد بها ولم يسمح بها صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز الله؟
أنتم على شرع، بعضه مخالف "لأنه سيّء" أو موافق "لأنه صالح" لشرعه تعالى، فمن شرّعه لكم؟ وهل يستند إلى إلهكم الذي خلقكم؟ أم أنتم اخترعتموه؟ وهذه كتب إلهكم "التوراة والقرآن" وشرعكم ليس معتمدا على الصلاح الذي في كتبه تعالى، فهل آلهتكم التي اخترعتموها شرّعت لكم ما تخالفون به شرعه تعالى؟
نحن أمام شرع منه تعالى، وبين شرع آخر، فمن أين مصدر الشرع الآخر؟ نحن أمام شرع من الإله الخالق العظيم العزيز الحكيم العليم... وشرعكم، فهل شرعكم يعتمد على مصدر من مستوى إلهي؟ وإن لم يكن كذلك فما معنى ترككم لشرع الإله سبحانه؟!
كما ترى، يشير الكلام ضمنيا إلى أن شرعهم من صنعهم هم، وهم بشر، فلو سندوا شرعهم لآلهتهم ليعتمدوه في مقابل شرعة الإله الله سبحانه، لكانت الفكرة أن شرعهم إلهي أيضا، ويكون فيه قوّة الاستناد على مصدر إلهي، بينما معلوم أن شرعهم من صنعهم، وهكذا تصير المقابلة بين تشريع من الإله وتشريع من البشر، والفرق الهائل واضح بسهولة بينهما من ناحية مستوى علم وحكمة من يشرّع.
طبعا ضع في بالك الفرق بين تشريعه تعالى في قرآنه وبين تشاريع المنتمين لدينه تعالى، لأن الكلام هنا عن تشريعه تعالى، وأمّا المنتمون لدينه تعالى فقد دخلت أمراضهم القلبية على فهمهم لكلامه تعالى حتى صار النصّ القرآني الصريح مؤوّل أو منسوخ أو متجاهل عنه... ليتوافق مع أهوائهم السيئة وأبرزها وأوضحها مثالا ما ورد

في الآية 8 من سورة الممتحنة "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"، وسياق كلامها كان عن الكفّار والمشركين أن تبرّوهم... إن كانوا مسالمين حتى لو لم يسلموا، بينما في فتاوى العديدين معاداة وكره وبغض بل وتحليل لدم المسلمين لبعضهم البعض!

ولولا كلمة الفصل، ومن عموم القرآن نفهم أنها الكلمة الإلهية الفاصلة بين شيئين، الفاصلة بين احتمال حصول العقاب النهائي الآن أو تأجيله للآخرة، وتعلم من عموم القرآن أنه تعالى سيترك حساب الناس النهائي للآخرة ولن يوقف الحياة الدنيا قبل أوانها ليحاسب الناس بشكل نهائي. ولولا هذه الكلمة، لقضي بينهم، لصدر منه تعالى بشكل نهائي ما يريده أن يحصل بهم، فصدرت أحكامه تعالى الآن بحقّهم ورماهم في النار.

وإن الظالمين، وإن الذي لم يكونوا منصفين ولا محقّين حين تركوا شرعه تعالى، فلم يكن معهم حق حين تركوا شرعه تعالى، لهم عذاب أليم، سيصيبهم ضرر لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه، فهذا القضاء بتعذيبهم بهذا الشكل هم يستحقّونه الآن ولكن سبقت كلمة ربّك سبحانه ولذلك سيترك الحساب للآخرة.

نرجع للسؤال: على أي أساس تتركون شرعه تعالى؟ فهل أنتم يحقّ لكم التشريع وإلزام أنفسكم والآخرين به ليكون دينا لكم، ولا يحق لمن خلقكم إلهكم العزيز الحكيم العليم... أن يضع لكم تشريعا ليكون دينا لكم! أم آلهتكم أنزلت لكم تشريعا؟ طبعا لا، لأن آلهتهم ليست آلهة حقيقية، ولم يأت منها رسول ولا كتاب... وهذا معلوم للجميع.

لاحظ الآية هنا لم تتطرّق للفساد الذي في تشريعهم، واعتبرته متضمنا في الكلام، بل كل القرآن اعتبر أن أي شرع غير شرعه تعالى، سيتضمّن فسادا، واعتبر أن الكفر به تعالى ورفض "موالاته" سببه الأساسي رفض اتباع الصلاح الذي في شريعته سبحانه، وسترى في الآية التالية اشارة لذلك عند كلامها عن الذين عملوا الصالحات.

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ{22})

هناك حيث العذاب الأليم في الآخرة:

ترى الظالمين، يصير عندك صورة محدّدة للذين لم يكن معهم حقّ بترك شرعه سبحانه، تراهم، مشفقين، تراهم يتلبّسون شعور حصول الخطر عليهم، مما كسبوا، من الذي حصلوا عليه مما نتج من أعمالهم، وهو، الخطر الذي هم مشفقون منه، واقع بهم، فسيحصل معهم فعلا ما يتوقّعون حصوله، فلن يبقى إشفاقا كتوقّع وتلبّس تصوّري لحصول الخطر، بل سيتحقّق فعلا.

والذين آمنوا، والذين هم في حالة اعتقاد بهذا الدين الإلهي، وعملوا الصالحات، وقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، فقد خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعمليا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول أنهم صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل فالكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنوا به.

هذا الكلام له عمق، حيث لا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت

محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلا سيّء" فسيكون في الحقيقة اختراع من البشر ألصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

هؤلاء، في روضات الجنّات، والجنة هي المكان الموصوف بروعة ما فيه من بساتين وحدائق ومباهج، وفي الآخرة يوجد جنّات عديدة، وكلّها توصف بأنها روضات "روضة" لأنها مكان الترويح عن النفس والاستراحة، كالبستان والحديقة وأماكن التسلية واللعب... وقد ورد في القرآن كلمة الروض مرتين هنا في الآية "روضات"، و"روضة" وفي الآية 15 من سورة الروم "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ". ودرج في الأحاديث استعمال كلمة "رياض الجنّة" بكثرة وعلى ما يبدو من كلام العرب فإن للكلمة تصريفين "ريض" والجمع منها جمع تكسير "رياض"، وتصريف "روض" ومنه جمع المؤنث السالم "روضات".

لهم، للمؤمنين، ما يشاؤون عند ربّهم سبحانه، فهناك خيارات عديدة أمامهم والمسؤول عنهم من مستوى إلهي سيحققها لهم.

ذلك هو الفضل الكبير، هم دخلوا الجنّة بفضله سبحانه وليس لهم عليه سبحانه حق في إدخالهم الجنّة، ولا فرضا واجبا عليه تعالى إدخالهم الجنّة، بل هو تعالى قرّر ذلك كعمل حسن منه تعالى لنا، حيث في الأساس حين خلقنا تعالى، ليس لنا حقّ عليه تعالى بأن ندخل الجنّة، بل هو تعالى بفضله ومن دون حقّ لنا عليه قرّر إدخال المؤمنين إلى الجنّة، وهذا فضل كبير، طبعا كبير لأنها جنّة رائعة خالدة.

ننتبه جيدا حين يخبرنا القرآن دائما أن الجنّة رائعة وفوق تصورنا، ولا ملل فيها، والتفاصيل التي وردت في القرآن هي مجرد نماذج حتى نتمكن من تصوّر الجنّة، أمّا الحقيقة فهي أعظم من ذلك بكثير، وكعلامة على ذلك ما تقوله الآية هنا أن المؤمنين لهم ما يشاؤون فيها، فما يتصوّره البعض عن سهولة الحصول على الأشياء في الجنّة أنه سيسبّب الملل والضجر واختفاء الإثارة والتشويق... فهذا هراء وناتج عن قلّة تدبّر للقرآن الذي وصف الأشياء في الجنّة بأنها أكثر من الرائعة، وأن أهل الجنة لن يفكّروا ولو للحظّة ولو للمحة بتفضيل حياة أخرى أو مكانا آخر، كما ورد في الآية 108 من سورة الكهف

"خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا"، ومن جهة ثانية عرض القرآن دائما التجدّد لما في الجنّة من مباهج، كما ورد في الأية 35 من سورة ق "لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ"، ومن جهة ثالثة أخبرنا بخلاّقية وابتكار الناس هناك لأمور مفرحة، يطلبونها "يصمّمونها..." ويحصلون عليها كما ورد في الآية 57 من سورة يس "لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ" .
نتذكّر دائما أن الإيمان وحده لا يكفي، والعمل الصالح وحده لا يكفي، بل كلاهما معا ضروريان لدخول الجنّة.

(ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ{23})

ذلك، الروض وما يشاؤون فيه، الذي يبشّر الله عباده، فعبر هذا القرآن أوصل تعالى الخبر السارّ المفرح للذين مفروض منهم طاعته، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، عباده الذين أعلنوا اعتقادهم بالحقّ وقاموا بالأعمال الجيدة الحسنة.
تذكّر أن كلمة عبد تشير لمن مفروض عليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.
وأن كلمة عباد هي جمع الجمع، حيث عبيد هو الجمع والعباد جمع الجمع، وليس صحيحا ما يتداوله البعض عن تخصيص القرآن كلمة عباد للمؤمنين، وتقرأ ذلك صراحة في الآية 30 من سورة يس "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ".
ولمزيد من التوسع حول كلمة عبد راجع دراسة الآية 25 من هذه السورة.
قل، أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن للناس: لا أسألكم، لا أعبر لكم عن إرادتي للحصول، عليه، على تبليغي للرسالة الإلهية لكم، أجرا، لا أريد أن تعطوني أجاري، أشياء محدّدة أستحقّها منكم على عملي بتوصيل البشرى والشرع الإلهي لكم، فلا أطلب مالا أو ملك أو بيوتا أو أراضي... ولو طلبت ذلك منكم لكان معكم حقّ في أن تشكّوا بي

كرسول إلهي، ولكان معكم حقّ باتهامي أن ديني ليس إلهيا وأني لدي مصالح شخصية...
لا أسألكم، إلا المودّة في القربى، أن تكونوا ودودين مع أقربائي، فعلى خاطرهم وبما يريحهم ويسعدهم تعاملوهم، فتعاملوهم بلطف وعناية، وهذا ما أسألكم.
نلتفت لأمره تعالى لرسوله(ع) أن يسأل الناس الذين وصلتهم البشرى عبره (ع)، فيسألهم المودّة لأقربائه، وأن لا يسأل أجرا، بل بأمر إلهي يسألهم المودّة بأقربائه، مثلما نقول: لا تعطيني المال واعطني حبّك.
يعني ليس أجره(ع) المودّة في القربى بل لم يسألهم أجرا وسألهم بدلا منه المودّة في القربى وبأمر إلهي.
نتذكّر من التاريخ أن النبي محمّد(ع) من بني هاشم من قبيلة قريش التي تضمّم عدة عائلات، والأكثرية الغالبة من أهل مكّة كانوا من قريش، ويذكر التاريخ أن أقرباء النبي(ع) من بني هاشم ورغم بقاء أكثريتهم على شركهم في بداية الدعوة، إلا أنهم لم ينبذوا النبي(ع) ولم يعادوه بل بقوا على مودّتهم له، إلا عمّه أبو لهب الذي نزلت فيه سورة تتوعدّه بالنار، ونتذكّر العديد من الحوادث التاريخية التي تدخّل فيها أقارب النبي(ع) لحمايته، ومنها حين عرضوا على أبي طالب زعيم بني هاشم أن يسلّمهم ابن أخيه النبي محمّد(ع)... ورفض... عندها هدّدوه بالمقاطعة لكل عائلة بني هاشم بسبب حمايتهم للنبي(ع)، وفعلا حصل ذلك وأخرجوا المؤمنين الضعفاء من بيوتهم من مكّة، وذهب المؤمنون إلى منطقة تابعة لمكّة تسمّى: شعب أبي طالب، وكما يبدو فهي قطعة أرض ملكيتها لعمّ النبي أبو طالب، ولحق بهم النبي(ع) وبعض المؤمنين من العوائل القوية تضامنا مع المؤمنين الضعفاء الذين ليس لهم عوائل تحميهم والموضوعين تحت الإقامة الجبرية في تلك الشعب، حيث قاطعتهم قريش وحلفاؤها ومنعوا بقية الناس من التعامل مع المؤمنين وإيصال الطعام لهم لمدّة تقارب السنتين... وطوال مدّة بقاء النبي محمّد(ع) في مكّة حاولت قريش بكلّ جهدها انتزاع النبي محمّد(ع) من حماية أقربائه حتى يقتلوه ولكنهم لم ينجحوا... وكما ترى فقد أظهر أقرباء النبي(ع) ودّا له وحماية وتضامنا معه.

موقف عمّه العبّاس الذي خاطب وفد المدينة حين تعاهدوا مع النبي (ع) على حمايته ونصرته... على أساس أن يهاجر النبي (ع) إلى مدينتهم، فخطاب العبّاس معهم مشهور بحثّهم على الالتزام بعهدهم بحماية النبي(ع) وفي حينها كان العباس كافرا!
أيضا من أشهر محطات التاريخ إعلان حمزة عمّ النبي (ع) لإيمانه في أشد لحظات ضعف المؤمنين في مكّة... وكان لذلك دفع معنوي كبير... وحتى فيما بعد الهجرة ذكر لنا التاريخ التزام وتضحيات غير عادية من أقربائه (ع) أشهرها مساهمات الشابّ ابن عمّه علي ابن ابي طالب، وعمّه جعفر، وابن عمّته الزبير... واستشهاد العمّين جعفر والحمزة.
سبحانه في قرآنه يأمر المؤمنين أن يعتبروا بعضهم البعض اخوة، كما ورد في الآية 10 من سورة الحجرات "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"، فإن خطر في بالك أن السورة تأمر المؤمنين بمودّة المؤمنين فقط من أقرباء النبي(ع) فهذا لا معنى له، وبخاصة لما نعلمه مما فعلوه في سبيل دينه تعالى حين كانوا كفّارا، بل تأمر بمودّة أقربائه عموما لأنهم وقفوا بجانب النبي(ع) وحموه.
وبضمّ ما نجده في الآيات 7 و 8 و 9 من سورة الممتحنة عن سماحه تعالى للمؤمنين بمودّة الكافرين الذين لم يعادوا المؤمنين "عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)"، وبتذكّرنا من التاريخ أن الغالبية الساحقة من أقرباء النبي(ع) كانوا في حين نزول هذه السورة من الكفّار، نعلم أن المودّة التي أظهرها أقرباء النبي محمّد(ع) له جعلتهم يستحقّون الأمر الإلهي للمؤمنين بأن يودّوهم "إلا أبو لهب"، رغم كونهم بغالبيتهم في حينها كانوا كفّارا.
هكذا ترى أنه تعالى هنا في الدنيا يحفظ حتى للكفّار عملهم الحسن مع

رسوله(ع)، وكان لهذا أثر بإسلام غالبيتهم الساحقة ودفاعهم المستميت فيما بعد عن دينه تعالى، فمن علمه سبحانه بما سيحصل أمر بمودة القربى. وهذه اللطافة الإلهية مع الكفّار حتى يلينوا ويسلموا تجد لها مصاديق أخرى وليست خاصة لأقرباء النبي(ع)، فتجد لطافة إلهية غير عادية مع أسرى مقاتلين من الكفّار بعد معركة بدر، وتقرأ ذلك في الآية 70 من سورة الأنفال "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ".

على مرّ التاريخ الاسلامي من بدايته، تعرّض أقرباء النبي(ع) للقتل والحبس والتهجير... من الذين استلموا السلطة لأنهم اعتبروا أقارب النبي(ع) منافسين لهم على السلطة... وأقارب النبي (ع) عموما عبر التاريخ كعائلة فقد كانوا من أكثر المسلمين إحياء لدينه تعالى، لأنهم أكملوا الحفاظ على لبّ دينه تعالى ونشره بين الناس...

نعد للبشرى للمؤمنين: ومن يقترف حسنة، من كان له حصّة من عمل وصفه حسن جيّد، نزد له فيها، يجعل سبحانه زيادة في حسنته، فيزيد سبحانه عليها، ونعلم من آيات عديدة في القرآن أن الحسنة تتم مضاعفتها، وأصلا الثواب على الحسنة عظيم جدا وبعد زيادتها تصير أعظم.

يعني هو تحفيز إلهي مع البشرى بالجنّة أن الحسنات ستتمّ مضاعفتها ليكون ما يحصلون عليه في الجنّة أعظم... ومن عموم مفاهيم القرآن تعلم أن الصدقة بتفاحة ثوابها ليس تفاحة مثلها أو عشر تفاحات أو صندوق تفّاح، ومن البديهي أنه قصور وحدائق... وبهذا المثال ترى أن أساس الثواب ضخم على الحسنة، ومن بعد ذلك تأتي الزيادة بنوعية أعلى وكمية أكبر...

إن الله غفور، يتجاوز بكثرة عن السيئات، لأنه سبحانه ليس لئيما قاسيا صلبا على موقف واحد لا يغفر، بل مهما فعلنا من سيئات فسيغفرها سبحانه إن استغفرنا.

والله شكور، يشكر سبحانه لعباده ما فعلوه من أعمال جيدة، حيث يعبّر لهم سبحانه عن تقييمه لأعمالهم أنها كانت جيدة. قارنها مع شعورنا المريح عندما يمدح الآخرون عملا حسنا قمنا به، فيقولون:

أحسنت... والآن ننتبه أن الإله بجلاله سيقول للمؤمن: أحسنت. ودائما ركّز القرآن على إظهار القيمة العالية التي يعطيها سبحانه وتعالى للمؤمن، واستعمل كلمة "كريم" مرارا في الكلام عن المؤمن وعن أجره للدلالة على القيمة العالية للمؤمن وللقيمة العالية لنوعية أجره، ولم يستعمل كلمة كريم للكثرة بالعطاء بل للقيمة "كرامة".

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{24})

أم يقولون افترى على الله، ألّف القرآن وألصق ما ألّفه بالله تعالى، كذبا، فسبحانه أصلا لم يقله، خذ مثلا قولي عنك أنك قلت "لي" عن اكتشافك لدواء ما. فإن لم تكن قلت "لي" ذلك، فأنا أفتري عليك، وإن كنت لم تكتشف الدواء، فأنا أفتري عليك كاذبا، فأنا ألصق بك "أفتري" شيئا غير صحيح "كاذبا". ولو كنت اكتشفت الدواء فعلا فعندها أكن فقط مفتريا عليك لأنك لم تقل ذلك لي، ويكون افترائي غير كاذب عند مقارنته مع الواقع.

هنا هم يقولون أن محمّدا(ع) يفتري الكذب، ويقصدون أن ما في القرآن من أقوال لم يقلها سبحانه فهي منسوبة له "مفتراة عليه" تعالى كذبا.

يقولون عن كلام النبي محمّد(ع) عن ولايته وشرعه تعالى، وعن الآخرة وثوابها وعقابها... كلام افتراء كاذب، فلم يقله تعالى لمحمّد(ع) بل أصلا لم يقله تعالى لأي أحد.

فإن يشأ الله، فمن بين الخيارات العديدة المتاحة أمامه تعالى يمكنه أن، يختم على قلبك، فأن يجعل شيئا على نهاية أساس فكرك ونفسيتك، كالسدادة، مانعا دخول الإيمان على فكرك ونفسيتك بسبب الختم على المدخل، بسبب وجود شيء يسدّ المدخل، وهذا سيحصل لك لو كان صحيحا افتراؤك الكذب على الله تعالى، فالختم على القلب على أساس الفكر والنفسية هو ما يفعله تعالى مع الذين يكذبون عليه، كي يرفض قلبهم قبول الإيمان، وبالتالي سيكون مصيرهم الخلود في جهنّم.

بعبارة أخرى، هل كلام هذا القرآن كلام مختوم على قلبه؟ هل هو

كلام مفتر كذّاب على الله تعالى؟ وسنتوسع بعد قليل في هذه النقطة.
ويمح الله الباطل، ويمسح الكلام غير الصحيح الفاسد، ويحقّ، الله تعالى، الحقّ بكلماته، ويجعل سبحانه الصواب الصالح متحققا واقعا ملموسا، عبر رسله وكتبه ووحيه... فقد حسم سبحانه موضوع توصيل دينه الحقّ للناس، وأرسل لكم محمّدا(ع) بكلام يدلّ على الحقّ بطرق متعددة ومختلفة، فهناك قرار إلهي حتمي أن يقوم شخص منكم بنقل كلام الحقّ للآخرين، وهذا ما يقوم به محمّد(ع)، وعلى هذا الأساس انظروا إلى كلامه ولا تقولوا عنه افتراء، بل أنتم تفترون بوصف كلامه تعالى بالكذب.
كلام الباطل منتشر بين الناس، وها قد جاء كلام الحق ومحى الباطل، خذ مثلا في مسألة الإيمان بالإله، حيث الباطل كان منتشرا بعبادة آلهة متعددة، وجاء الحق، فجاء الكلام الحق بالآيات والبراهين والحجج عن توحيده تعالى، فمحا الكلام الباطل. وهذا لا يعني انمحاء إيمان الناس بالباطل، لا، بل هو تعبير آخر عن انتصار الحق وغلبة الرسل ونصره تعالى للحق وزهوق الباطل... هذا لا يعني أن كل الناس آمنت بالحق، بل يعني أن الحقّ ظاهر واضح مبين... وما يوصف بالباطل صار واضحا كونه باطلا فاسدا عاطلا كاذبا...
إنه عليم بذات الصدور، فما يدور في صدور الناس، فتفاعلهم مع الأمور التي يتعرضون لها، قبولهم لها أو رفضهم لها أو كرههم لها، أو معرفتهم بصدقها وإيمانهم بها، أو معرفتهم بصدقها وإصرارهم على إنكارها... فكلّه يعلمه سبحانه.
كما ترى، سياق الكلام مع الذين قالوا عن الرسول(ع) أن كلامه افتراء كاذبا عليه تعالى وليس صحيحا منقولا عنه سبحانه، فسبحانه يعلم ما في صدروهم، فيعلم أنهم رأوه حقّا ولكنهم قرّروا رفضه، وأسهل طريق لذلك هو اتّهام ناقل الكلام الإلهي بالافتراء الكاذب.
بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" فإن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... فقد استعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، حيث نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... لأننا نحن عندما نتعرّض

لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، ولذلك استعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، نجد مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئا حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، فليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفيا أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

ننتبه جيدا، حيث كلّ القرآن يؤكّد بأن الحقّ من المستوى الإلهي ثابت وليس نسبيا، مثلا: هذه المرّة أنا معي حقّ وأنت أخطأت، والمرّة الثانية أنت معك حق وأنا أخطأت... أمّا كلامه تعالى فدائما حق، والقرآن رغم استعماله الكثير لكلمة حق، لم يقل ولا مرّة أن الله تعالى "معه" حقّ، بل هو الحقّ، كلامه الحقّ، يحقّ الحقّ...

هنا في الآية وأشباهها من الآيات تراها تعتمد على هذا الكلام، فما يقوله محمّد(ع) حقّ، لأنه ينقل الكلام الإلهي، وهذا شيء لا يقبل ولا بأي شكل توصيفه بالباطل، وعندما يقولون بأن محمّدا(ع) يفتري الكذب على الله تعالى، فعلى أي أساس يصفون كلام محمّد(ع) بالافتراء؟ وما هو الافتراء الذي قاله محمّد(ع)؟ وهل كذّب حين قال أن الإله واحد أحد؟ أم هل كذب حين قال أن الولاية من المستوى الإلهي هي لله تعالى فقط؟ وهل كذب حينما قال أن الله تعالى يرسل الرسل من البشر ليوصلوا رسالته للناس؟ وهل كذّب حين نقل لنا شرحه تعالى عن عقلانية توحيده وبما نفهمه بسهولة بما فينا من فكر وملاحظة... وهل كذب بضرورة الالتزام بشرعه الصالح سبحانه وإلا سننال عقابا في الآخرة... أم هل العقيدة والشريعة والسلوك المعروض علينا كدين في قرآنه تعالى فيه فساد؟ فأين الكذب والافتراء؟!

فرضا كان محمّد(ع) يكذب عليه تعالى، عندها قلبه سينختم مثل قلوب كل الكذّابين على الله تعالى، وحينها سيكون واضحا الكذب في كلام

محمّد(ع) مثلما الكذب واضح في كلام المشركين، فأين الكلام الكذب في كلام محمّد(ع)؟ ولا يوجد كذب في كلامه لأنه تعالى يمحو الباطل ويحقّ الحق، فلا يترك الباطل منتشرا بين الناس بل يعرض سبحانه الحقّ بشكل واضح، وطريقته تعالى في نشر الحقّ هي إرسال رسول مع كتاب.
هناك العديد من الآيات القرآنية التي تقول بأن الباطل زهوقا، زائلا، لا يغلب... وأن الحقّ منتشر، متحقّق، يغلب دائما... فكيف نفهم ذلك مع رؤيتنا ومعرفتنا بغلبة الباطل وانتشاره بين الناس في أغلب تاريخ البشرية؟ وقد فسّروا ذلك بأن الحق في النهاية دائما يغلب، وحتى لو رأيت الكفّار أو المشركين أو المنافقين أو الفاسقين... رأيتهم حاكمين فارضين لشريعتهم وفسادهم على الناس، ففي النهاية سينتصر الحق. هذا ما قاله الكثيرون في التفاسير واعتبروه تفسيرا لكلامه تعالى عن غلبة الحق.
لكن لو تأمّلنا فيما يقوله القرآن لوجدناه لا يقصد ما يقولونه، بل يشير القرآن لشيء آخر، فهو يشير لكلمة باطل وفي مقابلها كلمة حقّ يظهر منها بطلان "الباطل"، فيشير لعقيدة باطلة مقابلها إيمان بالحقّ يبيّن بطلان "الباطل"... ويؤكّد القرآن بأن أكثر الناس سيتّبعون الشيطان، وأكثر الأمم كافرة أو مشركة أو منافقة أو فاسقة، وأكثر الناس سيدخلون النار... وخذ عن ذلك مثال ما ورد في الآية 103 من سورة يوسف "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ"، وأمام هذه التأكيدات القرآنية لا نفهم أن الحقّ سيغلب بالطريقة التي يقولون عنها، كدولة بحكومة سلطة من المؤمنين مع قوّة عسكرية... بل نفهم أن الحقّ لم يترك كلاما أو عقيدة أو تصرفا باطلا إلّا ونبّه على بطلانه، فمن أراد الحقّ سيجده واضحا، وسيجد الحقّ منتصرا على الباطل مبيّنا فساده وزيفه وخطأه... وهذا ما يقصده القرآن حين نفهم منه بأن الحق منتصر، وإذا مرّت فترات انتصار للباطل فحتما سيأتي الحقّ ويبيّن بطلانه.
بعبارة أبسط: لا يطرح الباطل كلاما أو إشكالات على الحقّ إلا ويوجد توضيح وردّ من الحقّ على الباطل يبيّن بطلانه. أمّا الغلبة العسكرية للحقّ على الباطل وحكم المؤمنين ودولة الأنبياء... فهذه

حالات قليلة في التاريخ، وأيضا هي مدعومة منه تعالى لتنتصر "نصرا إلهيا" بشرط: وجود مؤمنين حقيقيين، وهناك حدّ أدنى لعددهم... وينتصرون بدعم إلهي كما في حالة بدر، أو يكون مؤمنا واحدا يحمل رسالة الإله سبحانه فينال دعما للحفاظ على حياته حتى ينشر الرسالة تماما، كما في حالة الرسول إبراهيم(ع) وموسى(ع) ومحمّد(ع).
لنقل أن كل أهل الأرض مشركون به تعالى، فما قيمة عملهم؟ هل يصير الشرك له قيمة؟ هل يصير هو الحقّ الصحيح الصواب؟ هل يصير شركاؤهم آلهة حقيقيون؟ لا، لن يتغيّر الحقّ، وسيبقى الله تعالى الإله الأحد، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية تعال لنرى أدلّة المشركين على صحّة عقيدتهم، ولنرى إن كانت صحيحة ليكون للناس عذر باتباعها؟ أم هي باطلة فاسدة وقد بيّن بطلانها وفسادها الأنبياء والرسل كتقويم للمعلومات التي فسدت بقلوبنا الفاسدة... وهذا هو الحق الغالب المنتصر الذي يتحدّث عنه القرآن من أوله لآخره، فهو مفصّل، بيّن، نور، منتصر، يصدع، فرقان... والباطل فساد ظلام داحض مغلوب... وهذا لن يتغيّر مهما حصل.

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ{25})

وهو، الله تعالى الغفور الشكور...
الذي يقبل التوبة عن عباده، الذين مفروض منهم طاعته يتوب سبحانه عنهم إن تابوا، إن فتحوا صفحة جديدة متغيرين عن السوء، وأنسب تفسير لكلمة توبة ومشتقاتها باستعمال القرآن أنها تعطي معنى عموم فتح صفحة جديدة، ومن تبعات ذلك عموم الإقلاع عمّا سبق، فهم يفتحون صفحة جديدة مقلعين عن السيئات العقائدية والعملية، وسبحانه يفتح لهم صفحة جديدة "مقلعا" فلا يحاسبهم على السيئات التي مضت.
ويعفو عن السيّئات، ويمرّ سبحانه عليها ولا يتوقّف أو يجمد عندها، بل يسامح ولا يطالب بالسيّئات، طبعا يفعل سبحانه ذلك فقط مع

المؤمنين الذين تابوا واستغفروا وطلبوا العفو، وأمّا غيرهم فلا عفو عن سيئاتهم.
ويعلم ما تفعلون، ويعلم بسيئاتكم ويعلم بتوبتكم فأنتم تحت المراقبة، لأنه سبحانه ليس مثلما يتصوّره بعض الناس ساكنا في جبل عال أو في السماء العالية ولا يدري بما يجري مع مخلوقاته.
هنا لم تتوسّع الآية في موضوع مراقبته تعالى لنا واكتفت باختصار أنه تعالى يعلم ما نفعل، لأن بعض الناس يخطر ببالهم أنهم إذا هم نسوا ما فعلوه من سيئات فسبحانه أيضا ينسى ولن يستحضر أمورا حصلت في الماضي ليحاسبنا عليها، لا، بل سبحانه يعلم بكل شيء، ورغم ذلك فسبحانه يغفر ويتوب ويعفو حتى عمّا نحن نسيناه، إن آمنّا وعملنا صالحا.
كما ترى هنا في الآية والتي تليها تتركان الباب مفتوحا للجميع للتصليح، لنفهم أنه سبحانه دائما بابه مفتوح للتائبين، وفي آخر الآية التالية توعّد بعقاب شديد لمن لم يتب...
كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.
نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، وكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، لأن كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة "عبيد" بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وقد وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وقد تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام "وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ"، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وقد تكون لمجموعات العبيد "جمع الجمع" المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرون جاءهم رسول، وعبيد آخرون...

فجمع الجمع "عباد"، هكذا ترى أن كلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا".

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ{26})

ويستجيب، ويهتمّ ويردّ على الدعوة الإلهية إلى التوبة والعفو، وقبلها الدعوة للتوحيد وولايته تعالى، الذين آمنوا، الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بدينه تعالى، وعملوا الصالحات، وباشروا بالأعمال التي يورنها حسنة جيّد، وعمليا تركوا ما يحرّمه تعالى ونفّذوا ما أوجبه تعالى، ومنذ قليل في الآية 22 توسعنا في دراسة تعبير "عملوا الصالحات".
هؤلاء يكون ردّهم على الدعوة إلى دينه تعالى بشكل إيجابي فيتماشوا معها، ويزيدهم تعالى من فضله، فعلى إيمانهم وعملهم الصالح واستجابتهم لدينه تعالى يتسجّل حسنات، وسبحانه من فضله يعطيهم أجرا، ومن فضله أيضا يزيد من حسناتهم فيجعلها أكثر. هم ليس لهم عليه تعالى فرض واجب بالأجر أصلا، ومضافا له فليس لهم فرض واجب عليه تعالى ليزيد لهم حسناتهم، بل تفضّلا منه تعالى يزيدها لهم.
سيأتي في الآية 38 من هذه السورة تكرار الكلام من زاوية أخرى عن استجابة المؤمنين لربّهم سبحانه، وهنا تريك الفقرة أنه تعالى أرسل رسله وهناك من وصفهم بالكذب افتراء وهناك من صدّقهم، وسبحانه يعرض علينا قبوله التوبة منّا ويستجيب لهذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبعد قليل سنتوسع في معنى استجابة هؤلاء لما يدعوهم إليه تعالى.
والكافرون، والمنكرون لدينه تعالى ولتوحيده وولايته وشرعه... الذين لا يستجيبون لدعوة ربّهم سبحانه لهذا الدين، لهم عذاب شديد، لهم ضرر لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

هناك عدّة نقاط في الآية وقد مرّ الكلام عنها في السورة، ونعيده بشكل مختصر، فالإيمان والعمل الصالح معا ينفعان، والواحدة منهما لوحدها لا تنفع، والثواب على الحسنة الواحدة بالأصل ضخم جدا، وستتم مضاعفته، حيث بالأصل أجر الحسنة قصورا ومباهج... وستتم مضاعفة هذه الضخامة. والكفر "إنكار الدين الإلهي" يسبب دمار "حبط" أي شيء "حسن" فعله منكروا الدين الإلهي الحقّ، فلن ينالوا المغفرة ولا الشكر على الأعمال الحسنة ولا التوبة ولا العفو ولا الزيادة على الأعمال الحسنة، لأن أعمالهم الحسنة كالسراب ولا قيمة لها مع إنكارهم للدين الإلهي.

القرآن استعمل كلمة "حبط" عادة بربطه للعمل الحسن مع الإيمان، كالذين آمنوا وعملوا صالحا ثم كفروا، هؤلاء تحبط أعمالهم الحسنة التي قاموا بها سابقا فتفقد قيمتها، والكفّار عموما فأعمالهم الحسنة أصلا حابطة، حيث لا قيمة للعمل الحسن مع الكفر.

نلاحظ دائما القرآن يخاطب الذين آمنوا وعملوا الصالحات كأنهم هم كذلك قبل وصول القرآن لهم! فيقول هنا في الآية: أن المؤمنين العاملين للصالحات قد استجابوا للدعوة إلى توحيده تعالى وطاعته! فما الذي استجابوا له إن كان وصفهم أصلا أنهم مؤمنون عاملون للصالحات؟

لقد تكرّر هذا الكلام بتعابير عديدة مختلفة في القرآن، ومنه ما تجده في الآية الثانية من سورة البقرة "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ". وللوهلة الأولى وبناء على مخزوننا الثقافي نفهم أنهم لم يكونوا مؤمنين، وجاءهم القرآن، فصاروا مؤمنين. هذا عادة ما نفكّر به، أمّا القرآن فلا يقول هذا، لأنه تعالى يرى الناس: بصير وأعمى. والبصير يريد الحقّ ويبحث عنه وحين يسمعه يتّبعه. وهو يرى ويسمع وله لبّ وقلب وعقل... هذه صفته قبل أن يصله الكلام الإلهي، وبنظره تعالى فهذا مؤمن عامل للصالحات طالما هو بهذه العقلية والنفسية السليمة حيث لم يخترع إلها ولم يعمل فسادا، لأنه مؤمن يبحث عن الطريق والقرآن يهديه للطريق، وهذا يستجيب لدعوة الله تعالى للولاية والشرع... لأنها أصلا متماشية مع سلامة فكره ونفسيّته.

من ناحية ثانية فالقرآن لن يغيّر وصف الأعمى ليصير بصيرا، ولن يجعل الأصمّ يسمع، ولن يجعل المدموغ المختوم المطبوع قلبه بالكفر يؤمن، لأنه هو قرّر أن يكفر، وهذا لن يتغيّر، ولن يكون القرآن هدى له، ولن يستجيب لدعوة الله تعالى.
هكذا نفهم كيف يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأنهم هم بالأساس كذلك، ولو بمقدار نقطة بيضاء في قلبهم، فهذه النقطة البصيرة السامعة تدفعهم للاستجابة للدعوة الإلهية.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ{27})

ولو بسط الله الرزق لعباده، لو جعل تعالى مع الذين مفروض منهم طاعته سبحانه، لو جعل معهم ما يسدّون به حاجاتهم ورغباتهم مبسوطا ممدودا وفيرا، لبغوا في الأرض، لكانت أعمالهم يقصدون منها شيئا ما في الأرض، وكلمة "بغي" نستعملها لعموم أي فعل مباشر لقصد شيء ما "أبغي شراء منزل"، وتراه بوضوح في العديد من استعمالات القرآن ومنها ما ورد في الآية 164 من سورة الأنعام "قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ..."، وهنا سياق الكلام عن مخالفتهم لأوامره تعالى، فلو كانت أوضاعهم المالية مرتاحة لفعلوا السيئات وتركوا الصالحات، ولكن ينزّل الله تعالى بقدر، بكميات محدّدة، قليلة، ما يشاء، حيث هناك خيارات عديدة أمامه تعالى ويختار سبحانه منها ما يراه مناسبا، فيبسط لهذا ويقدر لذاك، حتى لا يبغوا.
إنه بعباده، بالذين مفروض منهم طاعته، خبير، فما سيحصل معهم إذا انبسط الرزق، أو إذا كان بقدر عليهم، هو ليس احتمالات بالنسبة له تعالى، لأنه سبحانه يعلم مسبقا ماذا ستكون النتيجة. وبالنسبة لكلمة "عباد" راجع دراسة الآية ما قبل السابقة.
إنه، بصير، يدرك "بمستوى إلهي"، يعي معنى صورة ما يحصل، فيرى سبحانه الأمور ويعي ما يجري، وليس مثل الكاميرا التي تسجّل الصوت والصورة ولا تعي ما يجري. فالتغيّر في مقدار الرزق

سيتبعه تغيّر في حياتنا، وسبحانه يرى ذلك ويعي ما يجري.
الكلام السابق في الفقرة كان عمّن استجاب فآمن وعمل صالحا وعمّن كفر، وأكثر ما يعلق في ذهن الناس أن المؤمن "المتديّن" يجب أن ينال عناية إلهية مالية وصحيّة متميّزة عن غير المتديّن، وإذا كانت حالة المتديّن سيّئة فهذا دليل على أن التديّن مفعوله سيّء، وأن تدينه غير صحيح لأنه غير نافع... ورأينا فيما سبق من السورة أن حرث الآخرة مضمون لمن حرث لها، ونتيجته روضات الجنات الخالدة، وحرث الدنيا زائل، ومن عمل لها فقط فلن يجد حرثا له في الآخرة.
هنا في الآية نرى قاعدة إلهية عامّة للجميع، والبداية مع الكلمات الواردة في الجملة، فنحن عبيده تعالى، أي مفروض منّا طاعته، سواء بسط علينا الرزق أم لم يبسطه، وهذا المفهوم مرتبط بصفاته تعالى، فقد صمّمنا برحمته وحكمته وعلمه... بحيث إذا صلحت أعمالنا بشكل عام مع إيماننا عندها سننال عناية إلهية مما صمّمه تعالى برحمته والذي سيكون نتيجته بسط الرزق بقدر مقبول لجميع أفراد المجتمع، ومضافا له سننال أيضا عناية زائدة بتدخّل إلهي لمنع الكوارث الطبيعية وتأمين ظروف بيئية أفضل... هذا بقدر درجة إيمان المجتمع وعمله الصالح، وهذا ما تقرأه في الآية 96 من سورة الأعراف "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ".
كما ترى من مفاهيم القرآن ومن تاريخ البشرية، فمن نتائج تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا، فصلاح أعمالنا كمجتمع سينتج عنه صلاح في حياتنا الاقتصادية، سواء أكنّا مؤمنين به تعالى أم لا، وتدخّله تعالى لإبعاد الكوارث وتهيئة بيئة مناسبة أو تدخله بالعكس يكون مرتبطا بدرجة إيمان الناس أو كفرهم.
سبحانه صمّم بيئتنا وصمّمنا بحيث يتوازن فيها توزيع الثروات، ليكون في غالبية المجتمع ذوي حد أدنى ومتوسطي الحال، وأغنياء أقل ، وأثرياء كقلة قليلة، وهذا نتاج قراره تعالى بتصميمنا وتصميم بيئتنا من الأساس، وهو يتضمّن أن لا ينبسط الرزق لدرجة الثراء للجميع.
نرجع لكلام الآية عن بغي العبيد إن بسط تعالى لهم الرزق، فالبغي

كلمة عامة لأي فعل مباشر لقصد، كما نقول سائلين: ما تبغي؟ ونقصد معرفة ماذا تريد من فعلك... وتطبيقاتها تشمل قصد الخير أو الشرّ، وكمثال عن بغي الخير "قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا..." كما ورد في الآية 164 من سورة الأنعام.
هنا الآية تشير للبغي السيّء، وتشير لحالة تدخله سبحانه لتغيير مجرى الظروف لتجعل هذا أو ذاك مبسوطا له الرزق، وتشير لأساس تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا والتي سينتج عنها فقر وغنى وثراء... وعلى كلا الحالتين فلو صمّمنا وصمّم بيئتنا سبحانه بحيث ينبسط الرزق للجميع، أو تدخّل لبسط الرزق للجميع، عندها الغالبية ستبغي بالرزق المبسوط لفعل السوء، وهذا معلوم أصلا من حالة أن الغالبية ومهما حرصت فلن يؤمنوا كما تقرأ في الآية 103 من سورة يوسف "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ"، ومعلوم من التاريخ وكمثال عن ذلك حالة ثمود الواردة في الآية 74 من سورة الأعراف "وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ"، وحالة مدين الواردة في الآية 84 من سورة هود "وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ".
إلى هنا صرنا نميّز بين ما يعتقد به الناس وبين الواقعية القرآنية، فحتى المنتمين لدينه تعالى لديهم أفكار وتصورات غير واقعية، ولا تجدها صريحة في القرآن، بل بعمقها مخالفة للقرآن، وخذ مثلا عن ذلك أحلامهم بالثروة لأنه قرؤوا دعاء طويلا عريضا متوقعين نزول الثروات عليهم من كل جانب، وكأن هذا شيء يحصل عادة!
قد تظنّ أننا نتكلم عن اشتقاقات من الآية وليس دراسة مباشرة لها، لأننا بغالبيتنا لدينا أسئلة تتعلّق بالرزق الذي نريده مبسوطا لنا، وهذا أساسا هو نفسه السبب الذي لأجله ذكر تعالى لنا هذه الآية، لأننا نحن كمنتمين لدينه تعالى، والآخرون، لدينا نفس الأسئلة.
اكتفت الآية بالجواب بعبارة بسيطة سهلة معلومة للجميع، هذا إن لم ننكر الواقع، حيث الغالبية الساحقة سيبغون السوء إن انبسط لهم

الرزق، من فخر وتكبّر وزهو... وصرف المال على السوء من الأفعال... ولا تقل أنك أنت استثناء عن هذه الحالة العامة، فقد تكون كذلك فعلا، ولكن كن واقعيا وانظر للمبسوط لهم الرزق ماذا يفعلون من إسراف وتبذير في بيوتهم الفخمة وحفلاتهم ورحلاتهم... وجيرانهم يعانون من أقساط مدارس أولادهم أو لا يقدرون على شراء دواء...

حتى نفهم كلامه تعالى، علينا التعاطي معه بواقعيته كما هو من دون إقحام تخيّلاتنا فيه، لأن غالب كلام القرآن عن بسط الرزق وقدره، كان ناظرا لإيمان وسلوك المجتمعات، وهذا هو ما سيحدّد مستواهم الاقتصادي، ومما ذكرناه سابقا صرت تعلم بالتفاصيل المتعلقة بذلك، فمجتمع كافر ولكن سلوكه الاقتصادي عادل ولو نسبيا، فمن تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا سينتج عن هكذا مجتمع بسط بالرزق بمقدار مقبول لغالبية أفراد المجتمع...

أمّا الحالة الفردية لمؤمن يريد رزقا مبسوطا، ففي الأساس هو فرد يرتبط بمجتمعه، وسلوك مجتمعه سيحدّد له إطارا يساعده أو يمنعه من الغنى والثراء، حيث في دولة ظالمة فاسدة... سيصير فقيرا... وفي دولة عادلة صالحة سيكون بالحد الأدنى من العيش الكريم أو متوسط الحال، مع قابلية صيرانه غنيا أو ثريا، وهذا بغض النظر عن إيمان أو كفر مجتمعه، وهكذا صمّمنا وخلقنا سبحانه.

بالنسبة لتدخله تعالى لجعل المؤمن غنيا أو ثريا مهما كانت ظروف مجتمعه، فهذه حالة استثنائية لأنها حالة تدخل إلهي استثنائي له، لأنه سبحانه وكما أخبرنا، يتدخّل لصالح المؤمن وبحسب درجة إيمانه وبما يناسب صلاح إيمانه لتكون آخرته صالحة.

من هنا جاء كلام الآية في سياق هذه الفقرة ليعيد الأمور إلى نصابها الواقعي، فالغنى والثراء ليس معيارا لصحّة الإيمان بدين ما، لأنك قد تكون مؤمنا بدين الحقّ وفقيرا، وقد تكون كافرا وثريا، وسورة الفجر تخصّصت بهذا الموضوع وعرضته صريحا في الآية 15 وما بعدها "فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ".

من مراجعة سورة الفجر وجعل مفاهيمها أساسا، نفهم الآية هنا بشكل أوسع، فلولا بغي الناس لجعلهم تعالى كلّهم مبسوطا لهم الرزق،

والناس لن يبغوا إلا إذا كانوا مؤمنين عاملين للصالحات، ومعلوم أن هذه حالة نادرة جدا.

(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ{28})

عطفا على الآية السابقة التي أخبرتنا أن الرازق ببسط أو بقدر هو الله تعالى، وترون نموذجا عن ذلك في:
وهو الذي ينزل الغيث، المطر عندما ينزل يغيث الناس فينجدهم من وضع حرج عندما يكونوا بحاجة ماسة للمياه للشرب ولري المزروعات وسقاية الماشية... من بعد ما قنطوا، من بعد ما فقدوا الأمل نهائيا من تساقط المطر بسبب طول الانتظار، وهنا تضرب الآية مثالا متطرفا حرجا عن حالة قد توقّف فيها نزول الماء على بقعة ما من الأرض، وشعر الناس بالضيق، فسبحانه هو الذي ينزل الماء الذي يغيثهم ليخلصهم من وضعهم الصعب من العطش والجفاف.
سبحانه صمّم وخلق بيئتنا بحيث يحدث فيها نزول الماء الذي يحتاجه البشر الذين صمّمهم وخلقهم سبحانه يحتاجون للماء، فهي البيئة مصمّمة لتؤمن الماء للبشر، ويحدث أحيانا أن يتدخّل سبحانه لسبب أو لآخر ليمنع سقوط المطر أو ينزله بكثرة... وهنا كلام الآية ناظر للحالتين، لحالة تصميمه وخلقه تعالى لبيئتنا بحيث ينزل الماء دوريا من بعد اجتماع الظروف المناسبة لنزوله، ولحالة تدخله تعالى من خارج الظروف الطبيعية ليغيّرها لينزل الماء.
وينشر رحمته، ويوزّع سبحانه عنايته على الناس لما فيه مصلحتهم، حيث على مساحة نزول الماء كغيث للناس تنتشر عنايته تعالى بهم.
وهو الولي، فأنتم تابعون له وهو تعالى متابع لشؤونكم، وهنا الكلام عن الغوث بالمطر نموذج عن ولايته تعالى الذي يتولّى إغاثة عبيده، وهو الحميد، وكل ما يصدر عنه تعالى يوصف بأنه محمود جيّد، ونزول الماء مثال على ذلك.
لاحظ أن هذا التحكّم الإلهي بنزول الماء هو وجه من وجوه تحكّمه

تعالى بالرزق، ونقصد بالتحكّم عموم التحكّم، من أصل ما نتج عمّا صمّمه وخلقه تعالى، لأنه سبحانه صمّم وخلق بيئتنا جاعلا آليات وأسباب لنزول الماء، وأحيانا نادرة سبب تدخّله تعالى مغيّرا الظروف ينزل الماء.
من ناحيتنا نرى تشكّل الغيم والضغط الجوي وفرق الحرارة في الرياح... هم أسباب نزول الماء هنا وهناك، مما يشير لوجود ميكانيكية كآلية لنزول الماء، وبعد دراستها تصير هي الأسباب التي نعرفها لنزول الماء، ولأوّل وهلة قد لا يبدو لنا التدخّل الإلهي فيها لأنها آلية تحدث لوحدها... وهذا التفكير ينطلق من عقلية إنكار العمل الإلهي إذا عرفت سبب حدوث نزول المطر، بينما بمعرفتك لآلية حدوثه تتعرّف على الآلية التي صممها تعالى لنزول الماء.
قديما كان الناس جهلة لا يعرفون آليات حدوث ما يجري حولهم، وكل ما لا يعلمون كيفية حصوله يقولون أن الإله فعله، وهكذا اخترع الناس إلها للمطر وآخر للعواصف وآخر للزراعة... والمؤمنون الموحدون بغالبيتهم ومن نفس العقلية التي تجعل الإله فاعلا لما نجهل أسباب حدوثه، فقد وحدّوه تعالى كإله فاعل لكل شيء، وهذا التفكّر هو ما جعله تعالى فينا لنتعرف عليه سبحانه.
حاليا يمكننا التنبؤ بموعد نزول الماء قبل أيام، ومعرفة جنس الجنين أوّل ما يتشكّل في داخل رحم أمّه، ونعرف لون عينيه وبشرته والعديد من أمراضه الوراثية... ونعرف سبب الليل والنهار ويمكننا معرفة متى سيحصل الكسوف والخسوف إلى آلاف السنين... ولكن ننتبه، لأن القرآن أشار لأمور كانت لا تعرف الناس أسباب حصولها ونسبها لله تعالى، وأمور تعرف الناس أسبابها ونسبها لله تعالى أيضا، حيث قال عمّا يزرعونه بأيديهم أنه تعالى هو زرعه وأنبته وأخرج ثمره... راجع كمثال الآية 63 من سورة الواقعة وما بعدها "أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ"، وقال سبحانه عمّا اخترعه الناس أنه تعالى هو سخّره لهم، فالناس يعرفون أنهم هم اخترعوا السفن وروّضوا الخيول... ولكنه تعالى في قرآنه يقول بأنه هو فعل هذا، وراجع كمثال الفقرة الأولى من سورة النحل ، والآية 32 من سورة إبراهيم "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ".
من نظرة الإله سبحانه وتعالى فهو الذي صمّم وخطّط ونفّذ كل شيء في السماوات والأرض، وترى غالبية الناس "بدرجة ما" مؤمنة بهذا لأن الآيات أكثر من كافية للدلالة على ذلك، ولديهم شعور داخلي عميق بذلك، هذا رغم كفرهم وشركهم الذي بغالبيته جحود ومماراة، ورغم إنكارهم لحكمته ورحمته تعالى أحيانا "كما في حالة أمراض الأطفال..."، ورغم اعتراضهم على ما يجري معهم إن لم يكن لصالحهم... ولكن الذي خلق كلّ شيء لا بدّ وأنه يسيطر على ما يجري، ويبقى السؤال: نحن لا نرى سيطرته تعالى بعدما نكتشف الأسباب وآليات حدوث الأمور؟ فلنقل مفترضين أن الله تعالى غير موجود، فالمطر سينزل طالما تشكّلت الغيوم واجتمعت الأسباب التي تسبّب نزول الماء. هذا غير صحيح من أصله، فلو كان الله تعالى غير موجود عندها كل شيء سيزول "وأصلا لن يكون موجودا"، أنت والغيوم والماء... ستزولون وهذا معلوم من بعد التفكّر في خلق السماوات والأرض وعليه خبر تأكيدي منه تعالى في الآية 41 من سورة فاطر "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ..."، ولولا تصميمه تعالى لبيئتنا بحيث ينزل فيها مطر، لما نزل الماء، وما تراه أنت من اجتماع لأسباب نزول الماء فهو التخطيط الإلهي، وهو الآلية التي صمّمها وخلقها تعالى لنزول الماء.
هل تتوقّع أن يأمر الله تعالى ملائكته(ع) بفتح حنفيات "صنبورة" المياه في السماء وينزل الماء وأنت لا ترى إلا المطر نازلا ولا تدري كيف ولماذا ومن أين ينزل حتى تقتنع بأن الله تعالى ينزل الماء!
لنضرب مثالا للتقريب، ولنفترض أنك أنت تريد خلق كائنات في بيئة، فستنعكس صفاتك وقدراتك على ما صمّمت وخلقت، لأنه كلما كانت صفاتك وقدراتك أعلى، كلما كثرت التفاصيل والدقّة في تصميمك للبيئة التي ستجعل فيها مخلوقاتك، ولنقل أنك خلقت سمكا في حوض ماء، وجعلت السمك قابلا للنمو والتكاثر، ويجوع... الآن نسأل: هل سترش له الطعام بيدك أم ستجعل بيئته ينتج عنها الطعام؟

وإذا جعلت البيئة ينتج منها الطعام ألن تكون أنت الذي خلقت الطعام وأنتجته؟ ألست الرازق؟ فأنت صمّمت خصائص المياه والتراب وصمّمت ما سينتج عنه الضوء والحرارة... وصمّمت العلاقة بين هذه الأمور لينتج عنها الطعام، فمن رزق المخلوقات؟ وهل معرفتهم بآلية إنتاج البيئة للطعام ستنفي أنك أنت صمّمته وخلقته!

السؤال الأهم: هل من المعقول منك إن كانت قدراتك وصفاتك عالية جدا، أن تخلق الطعام فورا بلا مقدمات وبلا آليات لإنتاجه وترشّه بيدك لمخلوقاتك؟! أم وبسبب قدراتك الفائقة ستصمّم بيئة ينتج عنها الطعام لمخلوقات قرّرت لها المرور في امتحان يتضمّن كيف وبأي أسلوب سيحصلون على الطعام، فقد جعلت فيهم حرية الإرادة والاختيار، مراقبا لهم باختيارهم للعمل الصالح سيحصلون عليه أم بالفساد والطغيان... وكيف سينفقونه... لتحاسبهم على ما فعلوه.

هل من المعقول أن تنفي مخلوقاتك صفاتك وقدراتك وتنكر أنك المسبّب لطعامهم لأنهم لم يروك ترشّ الطعام لهم؟ ولنفترض لو كانوا يرون الطعام فجأة على سطح الماء وبلا سبب فهل سيؤمنون بك؟ أم سيقولون أنهم فجأة ومن دون سبب ولا آليات سابقة هم أيضا خرجوا إلى الحياة؟ ولا يوجد خالق...

كما ترى، فسبحانه صمّمنا وخلقنا في بيئة تحدث فيها الظواهر التي ينتج عنها الطعام والشراب، وفهمنا لآليات إنتاج الطعام والشراب في بيئتنا لا يلغي وجوده تعالى، بل بالعكس سيدلّك على عظيم قدراته وصفاته التي نتج عنها تفاصيل هائلة في نظام متناسق متجانس يعمل بدقة حيث كلّ شيء يترابط مع بعضه بلا تعارض ولا خلل...

بقيت نقطة، فبتحليلات بعض الناس يرون الرزق والمطر غير مقسوم بطريقة دينية صحيحة، وهم يفترضون أن الرزق والمطر يجب أن ينزل فقط على المسلمين، فلماذا نرى بلاد المسلمين فيها فقر وجفاف! حسن، غالبية الذين لا يصلّون ولا يصومون ولا يزكّون... هم يقولون هذا الكلام الاعتراضي على الدين وعلى الإله عزّ وجلّ، ويظنّون أن الهوية الإسلامية كافية حتى يصيروا مميزين عن بقية الشعوب، وهذه نفس عقلية: شعب الله المختار، عند اليهود. فمهما فعل فهو مسلم وله امتيازات على غيره. وهذا غير صحيح، لأن النفاق والفسق هم مع

الكفر والشرك في نفس الخانة، ولا امتيازات إلا للمؤمن العامل للصالحات، ومصلحة "آخرة" المؤمنين هي الدرجة الأولى عنده تعالى، والمؤمن يهمّه حرث الآخرة ويعلم أن ما يحصل معه هنا في الدنيا من مشاكل إنما هو البلاء الذي يسبّبه له غير المؤمنين، والمؤمن الحقيقي يحمد الله ويتوكّل عليه وكلّ رجاءه للآخرة، وهو يفهم معنى حكمة بسط وتقدير الرزق، ويربط كل ما يحصل معه بما ستقوله الآية بعد التالية عن حصول المصائب معنا بسبب أفعالنا، سواء على الصعيد الشخصي أو على صعيد المجتمع.
تذكّر دائما من عدّة آيات ومفاهيم قرآنية أننا لو آمنا والتزمنا واستغفرنا لنزلت علينا بركات من السماء، ولعشنا في حياة هائنة سعيدة بين بعضنا وفي بيئتنا، وتقرأ ذلك في الآية 96 من سورة الأعراف "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"، حيث لا كارثة إلّا من ذنب ما، منك أو من غيرك، وسترى ذلك في الآية التي بعد التالية. ولن يفهم هذا الدين الإلهي بهذه الطريقة شخص يتوقف عن السيئات لخمس دقائق فقط، وخلالها يدّعي أنه تقي، ويطلب أن تتحقّق أدعيته وأمانيه، ويعترض عليه تعالى بسبب وضعه المالي والاجتماعي... لأنه مسلم ويجب أن يتدخّل سبحانه لتحقيق طلباته!
هكذا ترى أن كوننا منتمين بالاسم لدينه تعالى، لن يؤمن لنا دعما إلهيا لنعيش في بحبوحة ورغد، بل الإيمان والعمل الصالح لوحدهما يؤمنان قسما كبيرا من السعادة في الدنيا للجميع، ومضافا لما سينتج من سعادة لنا في مجتمعاتنا عن حسن تصرفاتنا، فسننال دعما إلهيا بفتح بركات لا نقدر على فتحها لوحدنا.
أمّا ومجتمعاتنا فاسدة لأقصى الحدود، وحكّامنا من أفسد الحكّام، فما نفع إسلامنا؟ بل أصلا ما معنى إسلامنا ونحن فاسدون؟ الآخرين من غير دين الإسلام الذين يعيشون في بحبوحة وهناء وأمن... فهؤلاء وحتى لو لم يكونوا مؤمنين بدينه تعالى، ولكنهم يعملون جزءا من الصالحات التي تكفل لهم حياة أمنية واقتصادية سعيدة، هم على الأقل لم ينصّبوا عليهم حكّاما فاسدين يسرقون موارد الدولة وليسوا جديرين بإدراتها...

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ{29})

ومن آياته، ومن الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، خلق، تركيب وتأليف، السماوات والأرض، وهذا التعبير يشير لكلّ المكان الذي تتواجد فيها المخلوقات، فقد ركّب وألّف سبحانه كل شيء.

هذا النوع من التعبير القرآني يتضمّن السؤال التالي: أنتم وما حولكم وكل شيء في السماوات والأرض، من الواضح جدا لكم أنكم مركّبون مألّفون "مخلوقون" من المواد، فمن خلقكم فمن ركّبكم وألّفكم؟ وأنت صرت تعلم من كثرة ما تكرّر في دراستنا هذه الكلام عن معرفتنا بآليات نشأة كوننا ونشأة الحياة أنه ليس استبعادا لوجود الإله، بل هو تعرّف على آلية خلقه تعالى للمخلوقات والظواهر، لأن معرفتنا للمراحل والترابطات المتسلسلة التي أدّت إلى تشكّل الكون ونشوء الحياة، من علاقات فيزيائية وكيميائية وبيولوجية... إنما هو تعرّف على آلية خلقه تعالى لها، وعديدة هي الآيات القرآنية التي سألتنا مباشرة عن المصمّم والمخطّط والخالق للسماوات والأرض، لأنه تعالى خلقنا مع القدرة على ملاحظة ذلك، وللسؤال عنه لنتعرّف عليه سبحانه من أفعاله، وإلا فكيف سنتعرّف عليه لنتّخذه وليا؟

ومن آياته، ما بثّ فيهما، ما نشره تعالى في النواحي المختلفة من السماوات والأرض، من دابة، من مخلوقات تدبّ فتتحرّك على الأرض وفي السماوات، وهو على جمعهم، على جمع الدواب المبثوثة، ونعلم من عموم القرآن أن المقصود هو جمعهم في الآخرة بعد أن يموتوا، إذا يشاء قدير، فلديه تعالى الخيار أن يجمعهم من موتهم أو يتركهم فليس مجبورا سبحانه على أي خيار، وإذا شاء أن يجمعهم من بعد موتهم ومن أماكنهم المختلفة فهو سبحانه يقدر على ذلك، ونعلم من العديد من آيات القرآن تأكيده تعالى أنه قضى فقرّر وشاء أن يجمعهم في يوم سيقومون فيه من الموت في الآخرة.

نلاحظ القرآن عبّر عنّا نحن البشر وعن الحيوانات كلّها وعن الحشرات والطيور بأنها: دواب. ولم نلاحظ في القرآن أبدا إطلاق

كلمة دابة لا على الملائكة(ع) ولا على الجنّ، مما يوحي بشدّة من تعبير"بثّ فيهما" لوجود دوابّ طينية في السماوات على شاكلة الدواب "الحيوانات الطينية" التي على كوكب الأرض، ونفهم هذا مع التذكّر أن كلمة سماء لا معنى لها لوصف شيء ما إن لم يكن يقابلها أرض، فأرضنا أرض لسمائنا وسطح القمر أرض لسمائنا أيضا وسطح الشمس وسطح كوكب المشترى... أراض، وهكذا لبقية السماوات أرض أو أراض تناسب نوعيتها وتركيبها لنوعية سمائها، وتقرأ ذلك صريحا في الآية 12 من سورة الطلاق "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ..."، فالكلام ليس عن سبع كواكب أرض لكل سماء، بل عن عموم أي أرض أو أراض تحت كل سماء.
من عموم القرآن وبالخصوص من الآية 38 من سورة الأنعام "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"، ومن الآية 5 من سورة التكوير "وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ"، نعلم أن كلّ الحيوانات بكلّ أنواعها سيتم حشرها في الآخرة، هكذا يمكننا من الآية هنا استنتاج وجود دواب في بقاع السماوات، ولا ندري عنها من القرآن سوى أنها دابة، فقد تكون حشرات أو أكبر أو عاقلة... لا ندري.
الدابة وصف لكل ما فيه حياة ويدبّ، فيتحرك مغيرا مكانه على أرض، وهذا بالأساس يشمل كل الكائنات الحية من عائلة الحيوان من الحشرات والزواحف وذوات الأرجل والطيور والأسماك، وندر استعمالها في كلامنا لتشمل الحشرات والأسماك، علما أن القرآن استعملها للحشرات كما في حالة الحشرة "السوسة أو غيرها" التي أكلت العصا التي كان يتّكئ عليها النبي سليمان(ع) كما ورد في الآية 14 من سورة سبأ "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ..."، واستعملها شاملا بها الزواحف كما في الآية 45 من سورة النور "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ..."، واستعملها بمعناها الأعم لتشمل كائنات حية من غير عالمنا كما في الآية 29 من سورة الشورى هنا "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ".

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ{30})
في هذه الدنيا التي خلقها تعالى وأنتم فيها مخاطبون بهذا القرآن....:
وما أصابكم من مصيبة، وأي شيء يصيبكم، أي شيء يحدث معكم سواء على المستوى الشخصي أو كمجتمع، وسياق الكلام هنا عن مصيبة بحصول شيء سيّء، فبما كسبت أيديكم، فبالذي حصلتم عليه مما نتج من أعمال أيديكم، فأنتم قمتم بعمل سيّء بأيديكم بأنفسكم بما تفعلون به الأمور، ونتج منه شيء وقد حصلتم عليه، فالمصيبة السيّئة التي أصابتكم هي ناتجة عن أفعالكم.
تعلم من القرآن أن المصائب السيئة أسبابها متنوّعة، فبعضها من تدخّل إلهي مباشر وصريح كحالة الأقوام التي ذكرها القرآن بنزول عذاب إلهي عليهم بتدخل إلهي مباشر كحالة قوك النبي لوط(ع) وعاد وثمود... بسبب تركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وارتكاب سيئة من العيار الثقيل مع توافق جماعي عليها... وهذه أقصى درجة تدخل إلهي ويليها درجات أخف من تدخله تعالى لتسبيبه مصائب...
هناك مصائب ناتجة من التصميم والخلقة لنا ولبيئتنا حتى تكون دار امتحان، وهي الكوارث الطبيعية بآلياتها الطبيعية التي صمّمها تعالى... وقد يتدخّل سبحانه لمنع حدوثها أو التخفيف من ضررها أو يتركها تحدث وذلك مرتبط بما يراه تعالى مناسبا بحكمته، وستقرأ عن ذلك بعد قليل.
من ناحية ثانية لدينا المصائب التي نحن بأيدنا نسبّبها كالحروب والمجاعات... التي تحدث من ملوك وأمراء وحكّام ومتسلطين ونافذين ورؤساء فاسدين مجرمين... هذا على مستوى المجتمعات، وعلى المستوى الفردي فمصيبة الفقر الشخصي والمتاعب والمشاكل مع الناس... تحصل من الكسل والفشل... ومن اعتداء الآخرين عليك واعتداءك عليهم... ومصيبة الحوادث الفردية من حوادث السيارات والأمراض والعاهات للأجنّة وللكبار... سببها الإهمال وتسمّم الجسد والتلوّث...
قرأت للعديد من الباحثين عن أسباب أمراض الأطفال، والولادات

المشوّهة، وبغالبيتهم يعتقدون أن سلسلة الجينات مصمّمة ليحدث فيها طفرات تطور نحو الأحسن، وليس نحو الأسوء، وهذا واضح من الاختلافات البسيطة في بنية البشر متكيّفين مع البيئة التي هم فيها من حرارة مرتفعة أو منخفضة أو غنية أو فقيرة ببعض أنواع المغذيات من بروتينات وفيتامينات... وواضح من غياب أمراض عن بيئات وانتشارها في بيئات أخرى بسبب اختلاف العادات والنظام الغذائي.
على أي حال، فالنتيجة التي نحن فيها من موت للأطفال من الأمراض والولادات المشوهّة، شيء مؤلم، ويدفعنا للتفكير في ذنب هؤلاء حتى تعرّضوا للعذاب ثم فقدوا حياتهم. لا ذنب لهم، ولكنه نتيجة التصميم الذي نحن فيه لدنيا البلاء، مثله مثل السوء الذي يتعرّض له الأطفال من البالغين ضربا أو قتلا، أو قتلا وبيعا لأعضاء جسدهم كقطع غيار.
هل يتحمّل الله تعالى سوء موت الأطفال المقتولين في الحروب؟ أم يتحمّل سوء المقتولين من الكوارث؟ أو من الأمراض؟
لاحظ أن حالة الإجرام البشري التي ينتج عنها موت أطفال وعذاب لهم، حيث الكثير من الناس يحمّلونه تعالى المسؤولية، ويسألون لماذا يسمح بحدوث ذلك ولا يتدخّل بدلا من الوقوف متفرجّا على المآسي؟
هؤلاء يدّعون طيبة القلب والاحساس المرهف، ولكنهم تعاموا عن واجباتهم هم بمنع هكذا حوادث، فنحن البشر تحت التكليف وفي حالة الامتحان ليرى تعالى ماذا نفعل، وسيحاسبنا على أفعالنا، وليس دورنا التنظير له تعالى ولفت انتباهه لما يجب أن يفعل هو.
من هذا المثال ترى أن الحزن على ما يحدث للأطفال من آلام، هو نتيجة خلقنا في دنيا البلاء، ولا فرق بين حدوث ذلك لهم بأيدي المجرمين أو من الكوارث، أو من الأمراض.
نعم، كلنا نحبّ الجنّة ونريدها الآن، ففي الجنّة لا سوء ولا من أي نوع، أمّا الدنيا فهذه حالها، شئت أم أبيت، وهذا كان قراره تعالى حين صمّمها كبيئة بلاء.
يستحضرني هنا ما حصل مع النبي محمّد(ع)، حيث مات له ثلاثة أولاد صغار كما يقولون في كتب التاريخ، وبكى (ع) عليهم، بل ويقولون أنه (ع) تعرّض للشماتة من الكافرين الذين سخروا منه كرجل يدّعي تواصل الإله معه، فلما لم يعامله الإله بعناية خاصة

لينجي أولاده من الموت المبكر! ولماذا لم يستجب دعاءه حين طلب شفاءهم؟
هذا النوع من الأسئلة لم يرد على خاطر النبي محمّد(ع)، بل أكمل وظيفته كرسول، وهو (ع) يعلم بأن هذه الوظيفة ليس لها امتيازات تجعله هو شخصيا أو أحبته منيعين من الأمراض والألم والموت، واعتبر (ع) المسألة من مجريات الحياة الطبيعية، وهذا شيء من الصعب علينا فهمه بسبب ما تربينا عليه من تراكمات الثقافة الدينية المبنية على الطلب منه تعالى تحقيق أمانينا وأحلامنا عبر الصلاة والدعاء والنذور...
نفهم من عموم كلام القرآن وخصوص ما ورد في الآية 66 من سورة المائدة "وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ"، والآية 96 من سورة الأعراف "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"، أنه تعالى يتدخّل ليغيّر أي شيء يصبّ في مصلحة مجتمع مؤمن صالح.
أيضا من الآية 41 من سورة الروم "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"، نفهم أن كل سوء يحصل معنا فهو من أيدينا، ويمكن أخذ كلام الآية على العمومية ليشمل كل شيء حتى مرض الأطفال، أو على خصوصية ما نفعله عن قصد وبإرادتنا، ولكن دمج الآيات يعطيك نتيجة واضحة: المجتمع الصالح يسخّر طاقاته للصلاح، النظافة الشخصية والعامة، العناية بأنفسنا وببعضنا، حسن التغذية... استعمال مبيدات حشرات لا تسبب السرطان وتشوّه الأجنّة... وهكذا من الجوانب التي تجعل الحياة رغيدة بسبب صلاح أهل المجتمعات، وما لا يقدرون عليه فسبحانه وبوعد صريح منه يتدخل لمنع حدوثه، ونفهم أنه حتى أمراض أطفال سيتدخل سبحانه "بطريقة ما" لمنعه.
نرجع للآية، ويعفو، ويمرّ سبحانه ولا يتوقّف، عن كثير، مما كسبت أيدينا، ولو توقّف سبحانه على كلّ شيء نفعله ليحاسبنا عليه على المسطرة، على كلّ صغيرة وكبيرة، لكانت المصائب مستمرّة على

الجميع.

(وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ{31})

وما أنتم بمعجزين في الأرض، حالتكم ليست حالة من يجعل الإله سبحانه عاجزا عن معاقبتكم على أعمالكم السيئة بإنزال المصائب عليكم، كما تقول: أعجزني. وتقصد أن شخصا ما قد جعلك عاجزا عن شيء ستفعله. هنا الآية تقول للناس بأنهم لا يمكنهم إعجازه تعالى عن فعل ما يريده بهم، حيث هنا على الأرض وكمثال، ترى الزلازل والبراكين والأعاصير والجفاف... تحدث ولا يمكننا ردّها أو إيقافها إن كانت قوية، فأي شعور بالعظمة وبالقدرة وبالقوّة... عند الناس إنما هو شعور خادع لأنهم وبأبسط نظرة إلى أنفسهم وما حولهم تراهم محكومين بأمور تحصل معهم ولا يحبّونها ولا قدرة لهم على منعها، فتريد الآية لفت انتباههم إلى ما هم فيه الآن ليقيسوا عليه قوله تعالى عمّا سيفعله بهم في الآخرة إن كفروا، حتى لا تغرّهم بعض القدرات ليعتقدوا أنه تعالى عاجز عنهم في الدنيا، وبالتالي فالكلام عمّا سيفعله تعالى بهم في الآخرة لا يخيفهم لأنهم أقوياء، لا.

وما لكم، وليس لكم أيها الناس، من دون الله، كما نقول: ذهبتم من دوني. ونقصد أنكم ذهبتم مع غيري وتركتموني. من ولي، فلا يوجد من يلي أموركم، من تكونوا تابعين له من مستوى إلهي ليعتني بكم، فإذا تركتم ولايته تعالى وواليتم غيره أو ظننتم أنكم أولياء لأنفسكم... إنما في الحقيقة ليس لكم ولي غيره تعالى من مستوى إلهي، وأي شيء من المستوى الإلهي فهو منحصر به تعالى ولا يمكن لأي أحد أن يفعل أي شيء، بحيث إذا أصابكم تعالى بنعمة فلا يمكن لأحد ردّها، وإذا أصابكم سبحانه بنقمة فلا يمكن لأحد ردّها.

ولا لكم من دون الله من، نصير، ليحقّق لكم ما تريدونه، فإذا أراد تعالى حصول ضرر لكم فلن تجدوا من يحقّق لكم منع حصول الضرر لكم، وإذا أردتم تحقيق السعادة لأنفسكم فلا أحد غيره تعالى يمكنه تحقيقها لكم.

ضع في بالك دائما أن النصر وصف لحالة عموم تحقيق الغاية على الآخر، فهي تحقيق ما تريده ولا يريده الآخر لك، وهي ليست حصرية لحالة الحرب والقتال بالأسلحة بل عمومية الانطباق، وبهذه العمومية استعملها القرآن كثيرا لوصف حالة الذين لا يجدون من ينصرهم في الآخرة، وهناك لا يوجد حرب قتالية لمواجهته تعالى، بل يوجد فرض إرادة، والكافرون يحتاجون لكائن من مستوى إلهي لينصرهم، ليحقّق لهم ما لا يريده تعالى الذي سيعذبهم.

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ{32})

ومن آياته، من الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، كعلامات ودلائل على وحدانية الإله وصفاته وقدراته الفائقة ووجوب ولايته، الجوار، الأشياء التي تجري، التي تنتقل بالتحرّك المتتابع، في البحر كالأعلام، في المياه الكثيرة كأنها رايات تتمايل، والكلام هنا عن السفن الشراعية التي تتمايل أثناء سيرها في البحر وتتمايل معها أشرعتها، فحين نزول هذا الكلام كانت السفن تعتمد على الأشرعة التي تعترض الهواء لتندفع السفينة وتجري، ووصفها كالأعلام يشير لأشرعتها وتمايل السفينة.

نحن لم نكتشف عوم الأشياء على الماء وصناعة السفن على أساس أنها لم تكن بحسبان الله تعالى، وبتعبير بسيط نتساهل فيه كثيرا، فنحن لم نخترعها وهي لم تخطر على باله سبحانه، لا، لأنه صمّمنا تعالى وصمّم بيئتنا بشكل سينتج عنه حتما صناعتنا للسفن، جاعلا فينا الفكر والملاحظة والخيال... الذي نتج عنه تقليدنا لعوم الأشياء على الماء وصناعة السفن، فمن الأساس كان تخطيطه تعالى لنا يتضمّن وصولنا إلى اكتشافنا لكيفية صناعة السفن.

ضع في بالك دائما أن القرآن عموما يذكر نماذج، والكلام هنا عن السفن الشراعية ليس حصريا عنها، بل هي نموذج، حيث صناعتنا لأي شيء يكون منسوبا له تعالى لأنه هو تعالى صمّمنا وخلقنا لنصل إلى الاكتشافات، فصناعة العربات والسيارات والقطارات والطائرات... وعموم وسائل النقل قد اختار القرآن منها نموذج السفن

ليلفت انتباهنا لتصميمه تعالى لنا ولبيئتنا بشكل يجعلنا مكتشفين لركوب الخيل وصنع العربة واستبدال الحصان بمحرّك...
تصوّرها كحالة تصميمك أنت لكائنات وبيئة، وقرّرت القدرات التي ستكون في مخلوقاتك من بصر وسمع وفكر وخيال... وقرّرت ما سيتوافر لهم في بيئتهم من مواد وخصائص لها ومن ظواهر طبيعية، فيمكن أن تخمّن ما سينتج عن مخلوقاتك من أفعال وابتكارات لأنك أنت وضعت فيهم القدرات... ومن هذا التبسيط نفهم أنه تعالى بعلمه وقدراته الفائقة فهو لا يخمّن ولا يحتمل، بل يعلم بدقة بما ستفعله مخلوقاته، وحين اخترعنا السفن وبعدها السيارات والطائرات... كان سبحانه من قبل يعلم بذلك وبدقة وبالتفاصيل، مثلما يعلم بكل ما سنفعله في حياتنا بدقة وبالتفاصيل.

(إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{33})

إن يشأ، فلديه تعالى الخيار أن تمشي السفن بالريح، بالهواء الجاري بقوة أو، يسكن الريح، فلا يتحرّك الهواء، فيظللن، فتبقى الجواري، ما يجري من السفن، رواكد، لا تتحرك، على ظهره، على ظهر البحر.
كنموذج عن سيطرته تعالى علينا وعلى بيئتنا: صناعة الفلك الشراعية وجريانها بالريح. لأنه سبحانه صمّمنا وصمّم بيئتنا بشكل سينتج عنه حتما تصنيعنا للفلك من السفن الكبيرة إلى المراكب الصغيرة، ونحن نقف عاجزين أمام تحرّك الريح، فننتظره ليهبّ حتى تمشي السفن الشراعية.
إن في ذلك، الذي لفتنا انتباهكم له عن السفن وجريانها بالريح، لآيات، هو أمور مميّزة كعلامات ودلائل، لكل صبّار، لمن يصبر كثيرا، فلا تفلت أعصابه ورزانته، ويحافظ على تصرفه بشكل واع ومدروس في مختلف الأزمات وأمام الرغبات السيئة، ولكل، شكور، كثير الشكر فيعبّر كثيرا عن حصول شيء جيّد معه.
ربط القرآن عدة مرات بين الصبر والشكر من جهة وبين الإيمان من

جهة أخرى، لأن من يريد الآن تحقيق ما يريده ويرغبه ولا يصبر، وليس لديه بعد نظر للحصول على ثواب الآخرة، فهذا لديه قرار عميق بالكفر به تعالى الذي يأمره بالصبر لأن الدنيا ليست جنّة الآخرة، فهناك في الآخرة رغباته أوامر أمّا في الدنيا فهي دار امتحان، وما معنى الامتحان إذا كانت رغباتنا أوامر! والذي لا صبر له لن يشكره تعالى لأنه بهذا الشكر سيعترف به تعالى وبدينه وسيكون مضطرا للصبر وهذا ما لا يريده.
إذا نحن أمام نفسية أساسية للمؤمن، فهو شخصيته هكذا، صبور شكور، وإن لم يكن كذلك فلن يكون مؤمنا حقيقيا ولن يرى ما حوله آيات ربانية، أو سيراها بغشاوة، أو لن يراها آيات أبدا إن كان شديد الكفر.
من هذا تشير الآية إلى ظروف لا ريح فيها لتجري السفن، كنموذج عن أي حالة تصيبنا ولا تناسبنا، فهل نصبر؟ وهل يكون صبرنا مبنيا على الإيمان بأن ما يحصل معنا هو ابتلاء، أم نعترض، أم نكفر ولا نؤمن به تعالى مسيطرا قد ابتلانا... أم نشكره تعالى حين تجري السفن، أم ننساه وننسى فضله ولا نشكره على النعمة...
بقي شيء، فهل نموذج السفن الشراعية الذي ذكرته الآيات هنا والتي تنتظر الريح المناسبة لتجري السفن بأمرنا، هو النموذج الوحيد الذي كان يعكس ضعفنا؟ لا، لأن الطائرات ومهما حسّنا تصميمها، لن تصمد أمام عاصفة، والسفن من القياس الضخم وذات المحرّك النووي كحاملات الطائرات، تتجنّب العواصف البحرية القوية وإلا تحطّمت بجرفها نحو الصخور، والسيارات والقطارات ضعيفة أمام العوامل الجوية... فدائما ومهما فعلنا سنبقى ضعفاء أمام عوامل طبيعية ضخمة تفوق قدرتنا على تخطّيها.
سنتحدث في الآية التالية عن شيء له علاقة باختيار القرآن نموذج السفن الشراعية من آياته تعالى.

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ{34})

أو يوبقهن، أو إن يشأ سبحانه يجعل الرياح موبقة لتصير فيها ولكن

لا ينتج عنها خير، كالذي نقول عنه: دخل الموبقات. ونقصد أنه صار فيما لا خير فيه، فتكون الريح قوية كاسرة للسفن بعاصفة هوجاء، أو تركد الرياح ولا تتحرّك، أو تتحرك باتجاه غير مناسب للوجهة التي يقصدونها بالسفينة... بما كسبوا، بسبب الذي حصل عليه الناس مما نتج مما عملوه، فبسبب أعمالهم السيئة يجعل تعالى الريح موبقة لا خير فيها لهم... ويعف عن كثير، ويمرّ سبحانه عن كثير من الأعمال السيّئة التي تقترفها الناس فلا يعاملهم على أساسها، ولولا ذلك لكانت المصائب متلاحقة والأمور متعثرة باستمرار...

تلاحظ من كلامه القرآني سبحانه نظرته للمصائب الدنيوية أنها مرتبطة بما نفعله نحن، فإذا كسبنا السيئات من أعمالنا السيئة، سننحرم من الرحمة الإلهية، وكلّ ما سيحصل معنا سيكون نقمة لا خير فيه لآخرتنا، وهناك بعض أنواع السيئات التي نرتكبها في الدنيا وتسبّب حصول عذاب دنيوي لنا من تدخّل إلهي مباشر إن كان غالبية المجتمع فاسدا لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ويفعل سيئة من العيار الثقيل... وهناك ذنوب كثيرة تفعلها الناس ولكنه تعالى يعفو عنها فلا يتوقّف عندها ولا تسبّب للناس عذابا دنيويا من تدخّل إلهي.

إذا، هناك نعمة إلهية تدل على الخالق العظيم، وكنموذج منها السفن وتحريكها بالرياح حيث نستفيد منها بالسفر ونقل البضائع... وهذه النعمة ليست تحت سيطرتنا، فإن شاء تعالى يمكنه توقيف الرياح ولن تتحرّك السفن الشراعية، ويمكنه تعالى جعل الرياح موبقة، فتهبّ ولكن لا خير فيها لأنها تكسّر السفن، أو تهب بالاتجاه المعاكس لسير السفينة... وسيكون السبب هو ما كسبه الناس من بعض أعمالهم السيّئة من العيار الثقيل، ولو حاسبنا سبحانه على كلّ سيّئة فعلناها لكانت حالتنا في تعاسة دائمة ولكنه تعالى يعفو عن الكثير من سيّئاتنا، فلا يتوقّف عندها ليعاملنا على أساسها، وإلا لتدهورت حياتنا وصارت دائما غير محمولة.

بقي شيء، حيث من المعلوم لك توزّع حياة النبي محمّد(ع) بين مدينة مكّة إلى قرابة سن الخمسين من عمره الشريف، وبعدها قرابة الإثني عشرة سنة في مدينة يثرب، وكلا المدينتين بعيدتان نسبيا عن البحر، وأهلهما بغالبيتهم الساحقة لا يتعاطون السفر في البحر، بل المروي

عنهم كرههم للسفر في البحر "خوفا من الغرق"، ورغم ذلك ترى العديد من الأمثلة القرآنية عن فضله تعالى علينا كبشر بمنحنا ما أهلّنا لصناعة السفن، ففي ذلك الحين تعتبر السفن من أهم الاختراعات البشرية كإنجاز من تراكم الخبرات لاستخدام خصائص الطفو على الماء وقوّة الريح.
في عصرنا لا تزال السفن معتمدة لأنها من أرخص وسائل نقل البضائع، وأمّا انتقال الأشخاص فصار يعتمد أكثر على السيارات والقطارات والطائرت لأنها أسرع.
أقول لك هذا لتنتبه أن اختياره تعالى للكلام عن السفن هو اختيار لنموذج بارز عن اختراع بشري مهمّ جدا في حين نزول هذا القرآن، وجرى اختياره والتركيز عليه بغض النظر عن نفور المحيط الذي حول النبي محمّد(ع) منه، فسواء أكانت السفن مما يتعاطون معه في حياتهم أم لم تكن، وسواء يحبون البحر أم يخافون منه، وسواء كانت حياتهم الاقتصادية مرتبطة به عبر نقل بضائعهم وانتقالهم بالسفن أم لم تكن، وفي حينها لم تكن... فكل ذلك لم يعره القرآن أي أهمية وركّز على السفن كوسيلة مهمة جدا، وكإنجاز بشري باستخدام بيتهم لإنجاز شيء جديد.
لو نزل القرآن في عصرنا لتحدث أيضا عن السيارات والقطارات والطائرات، ففي فقرتنا القرآنية هذه وفي غيرها من الكلام عن السفن، عليك باعتبارها كلاما عن نموذج، وعمّمه ليشمل بقية ما اخترعناه عبر التاريخ لتسهيل حياتنا.

(وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ{35})

ويعلم الذين يجادلون في آياتنا، الذين يصلهم شيء مميّز من أفعاله تعالى كالسفن وجريانها... يردّون بكلام لإقناع الآخرين بأنها ليست آيات، ما لهم من محيص، فأي حيصة فأي حركة، لن تنفعهم أمام ما يحصل معهم.
عندها تسألهم: من أوبق الرياح؟ هل أنتم مسيطرون على مجريات حياتكم ولا قدرة إلهية فوق قدرتكم؟ وهل تؤمنون بقدرة الرياح

وعجزكم عن فعل أي شيء؟ وهي مجرّد رياح لا قرار لها ولا إرادة، فهل قهرتكم الظروف المناخية وليس هناك إرادة إلهية وراءها؟ هل تحصل هكذا لوحدها من دون مسيطر عليها؟
سيجادلون محاولين إقناعك بأن المصيبة حصلت بأسبابها الطبيعية، وأنهم لم يلحظوا تدخلا إلهيا لا في المصيبة الحسنة ولا السيئة.
علما أن التفكير بالنظام البيئي يريك بوضوح أنه نتاج تصميمه وخلقته تعالى، كآية دالة عليه سبحانه الذي تقصّد جعلنا ضعفاء أمام الحوادث الطبيعية حتى نراه إلها قويا قديرا مسيطرا...
جملة "ما لهم من محيص" مقصود منها أنه لو قرّر كل البشرية بجهودهم للتخلّص من المصائب لما قدروا، فما لهم من محيص، فلا يوجد أي حركة تنفعهم للتخلّص من المصائب من العيار الثقيل إلا بتدخل إلهي.

(فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{36})

فما أوتيتم من شيء، فأي شيء تحصلون عليه، من رزق وسفن ومال وبيوت... فمتاع الحياة الدنيا، فهي أشياء تنتفعون بها وتستفيدون منها هنا في الدنيا، وما عند الله، والكلام عمّا في الحياة الآخرة، خير، موصوف بأنه حسن جيد، وهذا يتقاطع مع معنى الأفضلية من متاع الدنيا، وأبقى، فلا يفنى ولا يزول، للذين آمنوا، للذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين الحقّ، وعلى ربّهم يتوكّلون، ويعتمدون على المسؤول عنهم من مستوى إلهي أنه يسيّر الأمور كما يجب لما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، فهنا تسير أمورهم لما فيه مصلحتهم الإيمانية وفي الآخرة يغفر سبحانه لهم ويثيبهم ويدخلهم الجنّة...
ننتبه دائما، أن الإيمان وحده لا يكفي لدخول الجنّة، ومن الآيات التالية سترى تكملة الإيمان بعمل الصالحات.
إذا، تريدنا الآيات أن نتعلّق بما في الآخرة، وتريدنا أن نفهم أن ما في الدنيا زائل ولا يدوم وأصلا في أحسن الظروف من الأمن والراحة والصحّة والرزق والمال... فهو متاع، ولم يصف القرآن ما في الجنّة

أبدا بأنه متاع، لأن الفرق كبير بين ما في الجنّة وما في الدنيا، حيث هنا الطعام لسدّ حاجة الجوع وإلا سنموت، وإذا تلذذت به فستتوقّف عن الأكل عندما تشعر بالتخمة، وتتضرّر من كثرة الأكل، وتعاني من مشاكل صحية من السمنة والسكريات والدهنيات وتصلّب الشرايين... وهنا أيضا تعتني بصحّتك ولا تضمن بقاءها... وتعتني بالمال والأملاك وأمنك وسلامتك... أمّا في الآخرة فلا يوجد شيء من هذا كلّه، لأن الأكل فقط للذة الطعام ولا ضرر منه، والجسد في مواصفات الخلود من الصحّة الدائمة والحيوية والنشاط والشباب... وما حولك لا يفنى ولا يخرب ولن تخرج منه ولا لأي سبب... وكلّ هذا للذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكلون.

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن فكثيرا ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحيانا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفا لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت "وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"، فمرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معان غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوء والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورة بين الحسن والأحسن، فلو قلت أن الإيمان أفضل لكم فهذا قد يعني أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، بل الإيمان خير لكم مما يعني ضمنا أن الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتا، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، لأنه يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ..."، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن والآخر أحسن "خير" وليس شرا، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة "إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ..."، فإبداء الصدقة ليس سوءا وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، لأنهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقيا حيث يكون الذي تقارن بينهما كلاهما جيدان، وعندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عموميا يشمل أمرين كلاهما جيدان ويشمل أيضا أمرين أحدهما جيد والآخر سيء، ويشمل الوصف مطلقا بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، فحتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقا كرازق وحاكم فهو خير من توصّف بذلك، فكلمة أفضل ليست وصفا صحيحا لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

الذنوب الكبيرة والصغيرة

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ{37})

الجنة لمن آمن وتوكّل على ربّه سبحانه و:

والذين يجتنبون، يبتعدون ولا يقربون، كبائر الإثم، والإثم هو العمل الذي تقوم به وأنت تعلم أنه سيّء، وهناك نسبة متفاوتة في نوع وشدة السوء، وقد ذكر القرآن من كبائر الإثم الخمر والميسر كما في الآية 219 من سورة البقرة "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ..."، وذكر القرآن ما توعّد عليه بالخلود في النار كقتل النفس التي حرّم الله تعالى والزنا كما في الآية 68 و 69 من سورة الفرقان "... وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا"، والربا كما في الآية 275 من سورة البقرة "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا...فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"، وغيرها كالفرار من الزحف... فهذه من كبائر الإثم.

والذين يجتنبون يبتعدون لا يقربون، الفواحش، وهي العمل الجنسي السيّء كالزنا والشذوذ...

وإذا ما غضبوا، إذا صاروا في حالة الاعتراض والرفض الشديد لفعل ما مع ردّة فعل سيّئة على الفاعل، هم يغفرون، يتجاوزون فلا يتصرفّون على أساس الغضب بل يتخطّون ما سبّب غضبهم ولا يقفوا عنده.
الآية تتحدّث بعملانية، ومثلها الآية 32 من سورة النجم "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ..."، والآية 31 من سورة النساء "إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا"، لأننا كلّنا حتما سنرتكب السيئات، ولو بالخطأ، وإذا لم يغفر سبحانه لنا فلن ينجو أحد من العقاب.
السيئات بالقياس إلى بعضها، منها صغير وآخر كبير، حيث صفعة بالكفّ على الخدّ لمن لا يستحقها، أذية، وعليها عقاب، ولكنها تبقى أصغر من قتل نفس بريئة، ونظرة حرام أصغر من الزنا...
كثيرا ما تجد في الكتب كلاما طويلا جدا ومملا أحيانا عن الكبائر والصغائر، والبعض من الكتّاب يريدونك أن لا تستهتر بالصغائر من الذنوب، فيكبّروها، وبشكل ما هم معهم حقّ، ولكنهم لأجل ذلك يشطح معهم الكلام ونصير لا نميّز بين كبائر وصغائر الذنوب، ويضيع الموضوع في التصنيفات... علما أن الموضوع كما طرحه القرآن واضح وسهل، فذو القلب السليم "بأساس فكر ونفسية سليمة" لن يفكّر بفعل السيئة معتمدا على الاستغفار منها فيما بعد، لأنه بالأساس يكره السيئات من شدة ما يراها قبيحة، أما نحن متوسطو الإيمان ترانا نستهتر معتمدين على مغفرته تعالى للصغائر، وللكبائر، أو نعتمد على الشفاعة، أو نبرّر للسوء... فهذا مستوانا الإيماني النابع من نوعية سلامة قلبنا، وهذا إيمان على الحافّة، وفرص النجاة من النار لهذه الحالة قد تصل إلى أقل مما هو مطلوب، فنسقط فيها، وما عرضه علينا القرآن من تخويف من النار يقابله تحفيز وتشجيع على دخول جنّة خالدة، بالإيمان والعمل الصالح للحصول على الدرجات العالية... وهذا الكلام المبني على مختصر مفاهيم القرآن الذي هو أكثر من كاف لي ولك، ونهاية الأمر فشأنك وما تختار، والأثر لما نختاره مصير نهائي خالد إمّا في الجنّة وإمّا في النار...

واقع الحال العملاني أن بعض السيئات عيارها أثقل من الأخريات، حيث الشرك والزنا وأكل مال الأيتام وقتل النفس البريئة والزنا والهروب من القتال... أمور مدمّرة لكل الحسنات التي فعلناها فتحبط فاقدة قيمتها ويكون العقاب خلودا في النار، والاعتداء على الآخرين بالكلام أو الضرب... ليس قليل الأهمية، ولكنه بالقياس إلى القتل فهو صغير، وقول القرآن "ضمنا" عن وصف بعض السيئات بالصغيرة "اللمم"، هل هو تشجيع لنا على الاستهتار بها؟ لا، بل هناك عقاب حتى على الصغائر، ولكن الواقع العملي أن تلك الصغائر هي المساحة التي تتحرّك ضمنها الشفاعة وتكفير الذنوب والعفو والمغفرة... في الآخرة.

هل هذا الكلام سيسبّب جرأتنا أو استهتارنا بما صنفناه كصغائر؟ نعم، لأننا من مستوى إيماني ضعيف، وهذا مستوانا ولم ينسانا سبحانه من كلامه لأننا نحن الأكثرية من المؤمنين، ونحن ضعاف الإيمان نسقط هنا وهناك مئة مرّة في اليوم... فهل نقطع الأمل من رحمته تعالى؟ لا، ولأجل ذلك دائما أمرنا تعالى بالاستغفار والعمل على فعل الخيرات التي تمحي السيئات... ليتحسّن مستوانا الإيماني، وفي النهاية فواقع الحال درجات في الجنّة، أقلّها لأمثالنا من ضعاف الإيمان، هذا إن انتهت حياتنا محاولين الالتزام بدينه تعالى ومبتعدين عن الكبائر، وإلا، فمصيرنا النار.

من المفيد هنا الانتباه لطريقة تفسيرنا لكلامه تعالى، حيث عادة وغالبا سترى الكلام عن موضوع الإثم، فيه خلط للكلمات بطريقة غير دقيقة، حين يستعملون كلمة حرام بدل السيئة، والذنب والخطأ... بدل الإثم. وأحيانا يكون كلامهم صحيحا ولكنه من خارج سياق الكلام القرآني، وأحيانا يكون كلامهم مشوّها للمفاهيم القرآنية، والسبب أنهم غالبا لم يلتزموا بدقة معاني الكلمات.

الإثم وصف لمن عليه تبعات ارتكاب عمل ما وهو يعلم بأن هذا العمل سيّء ومتوقّع منه تركه.

الحرام عامة الممنوع باتا جزما عمّا متاح لك أو لك حصّة فيه، ويتدرج من شدّة المنع إلى الشدّة مع العقاب عليه.

الذنب عمل موصوف بأنه مخالفة للأوامر.

هذه المعاني مستخرجة من سياق استعمال القرآن لها واستئناسا بما في القواميس واستعمال العرب قديما.
بناء عليه سترى عمقا في معنى الاستغفار والتوبة، فما معناهما إن لم تر ما فعلته سيئا لتستغفر أو تتوب منه؟ وإن بقيت تراه حسنا مع قناعتك بأنه تعالى يعاقب عليه، فهذه مشكلة تتعلّق بمدى سلامة قلبنا، وهي نفسها المشكلة التي تتعلّق بفهمنا لمعنى الإيمان بدينه تعالى ومعنى العمل الصالح.
سبحانه خلقنا بقابلية تمييز الخير من الشرّ، وعلى أساسها يحاسبنا ويجازينا، وافتراضا خسر أحد منّا هذه القدرة من الخلقة، عندها على أي أساس سيتحاسب ويتجازى؟ كما ترى فهذا مختلف عن فقدان قدرة التمييز بعدما نحن شوّهنا سلامة قلبنا بإصرارنا على فعل ما نراه سيئا، لأنه بعد ذلك ينطبع قلبنا وبشكل ما نفقد قدرة التمييز بين الصالح والفاسد والخير والشرّ، وهذا ليس عذرا لنا كفاقدين لأهلية التكليف حتى لا يظلمنا تعالى بتعذيبنا، لا، بل الذين في هذه الحالة سينالون أعلى درجات العقاب.
بناء عليه، لا يوجد حالة يقول فيها أحد ما يوم القيامة: لم أر هذا سيئا ولذلك فعلته ولا يحقّ لكم محاسبتي. وهذا القرآن مشحون بالآيات الصريحة التي تريك أنه لا تبرير ولا عذر ولا حجّة... مقبولة لأي فاعل لأي سوء مهما كان نوعه.
لا تخلط بين حكمه تعالى هناك وبين اختلافنا نحن هنا، على أساس أن كل واحد منّا مقتنع بحسن تديّنه بالرغم من اختلافه مع الآخرين، ومتّهما الآخرين بأنهم على ضلال، وهم يتهمونه بالضلال أيضا، وأنت ذات نفسك في مسألة ما لا تعلم الخير من الشرّ فيها...
دعك من هذا وارجع للأساس وليبقى نصب عينيك، لأننا أصلا مزروع فينا كلنا قابلية سليمة لتمييز الخير من الشرّ، ويلفت سبحانه انتباهنا لهذا في العديد من الآيات ومنها الآية الثالثة من سورة الإنسان "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"، ونحن بدأنا بتخريب وضوح الرؤية بسبب قراراتنا ومواقفنا وأفعالنا... السيئة، حتى تشوّهت فينا الحكمة، ووصلنا إلى حيث كل واحد منّا مقتنع بأنه على حقّ وأن الآخرين على ضلال، ووصلنا إلى حيث في مسألة ما لم نعد

نعلم الخير من الشرّ فيها.
هل نحن معذورون ولن يعذّبنا سبحانه؟ لا، هذا ليس عذرا، بل هذا هو معنى كلام القرآن واصفا لهذه الحالات بمرض القلب والصمم والعمى... وصولا إلى حالة الشبه مع الأنعام "البهائم" بل أضلّ من البهائم، فهل هؤلاء معذورون؟ لا، ولا نحن المدّعون للإيمان معذورون، وهذه حالة الذين سبقونا من أهل الكتاب وذمّهم القرآن لاختلافاتهم عن كلامه تعالى، وتوعدهم القرآن بالعذاب، وللأسف لم نفهم تلك الآيات إلا كإهانات لليهود وللمسيحيين، بدلا من فهمها كتحذير عمومي كي لا نقع فيها، فوقعنا فيها وصار بإمكانك تفسير تلك الإهانات لمن سبقنا من أهل الكتاب علينا.
الحلّ قرآنيا وبحسب معاني كلماته بالعربية بدلا من الاصطلاحات التي اخترعوها، هو بالاستغفار والتوبة، وأوّل خطوة هي الاعتراف بسوء ما تعلم سوءه، وقد تستغفر منه بلسانك وأنت عالم بسوئه ولكنك متعلّق به ولا تقدر على تركه، فأنت استغفرت بلسانك ولكنك لم تتب، ولكنك بمجرد اعترافك بسوء ما تفعله فعلى الأقل وضعت رجلك على مسار فيه أمل.
سأقول لك شيئا لم يقله القرآن ولكنه مقبول قرآنيا، فلا تنظر لمجموع أفعالك السيئة كلّها متمنيا التخلّص منها كلّها دفعة واحدة، لأن هذا يحتاج إلى صدمة قد لا تتوفّر لك، فابدأ بأتفه وأسهل ما يمكنك التوقّف عنه من سوء، وبعد ترسّخ هذا القرار، سترى أنك بدأت ترى أمورا أخرى سيئة لم تكن تراها سيئة من قبل، لأن قلبك "أساس فكرك ونفسيتك" بدأ بالتعافي...
الآيات التي ذكرتها لك منذ قليل والواردة في سور مختلفة عن موضوعنا هذا، سترى فيها واقعية كلامه تعالى معنا عالما بأن غالبيتنا بقلوب مريضة، وأبرزها الآية 31 من سورة النساء "إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا"، هذه الآية لا تشجعنا على التساهل والتهاون والاستهتار بالصغائر، واجتناب الكبائر فقط، بل هي عاكسة لواقع حال غالبيتنا، ومشجعة لنا على تجنّب الكبائر ليكون أول همّنا الابتعاد عنها، أو التخلّص منها، وإلا فالنهاية حتمية خلودا في النار، وهذه أكبر

المصائب.

هل يطرح القرآن نظاما سياسا "الشورى" أو اقتصاديا؟

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{38})

والذين استجابوا لربّهم، الذين دعاهم المسؤول عنهم من مستوى إلهي لتوحيده وولايته وطاعة رسوله وكتابه... فاستجابوا فكانت ردّة فعلهم تحقيق ما أمرهم به تعالى، وأقاموا الصلاة، وفعّلوا ولم يعطّلوا التوجه والإقبال لربهم سبحانه، والصلاة مصطلح ديني يشير للحركات والكلمات التي تعبّر عن إيماننا وشكرنا وحمدنا... وتقرّبنا منه تعالى، والتي نسميها بالصلوات الخمس الواجبة.
وأمرهم، والأمور والأشياء التي يريدونها أن تحصل وأن يقوموا بها، شورى بينهم، يتشاورون فيها حيث لا يفرضوا آراءهم على بعضهم البعض بل يتحاورون ليختاروا أفضل رأي يقدمه بقية المؤمنين.
نتذكّر من التاريخ كما نقله ابن اسحاق، أنه قبل واقعة بدر، عسكر النبي محمّد(ع) بالمسلمين، فجاءه أحد المسلمين وهو الحباب بن المنذر وسأله إن كان المكوث هنا وانتظار جنود المشركين هو أمر من الله تعالى أم هو "الرأي والحرب والمكيدة " تكتيك عسكري؟ فأجابه النبي(ع) لا ليس أمرا من السماء معسكرنا هنا، عندها اقترح الحبّاب تغيير المكان إلى مكان أفضل من الناحية العسكرية... فقال الرسول(ع): لقد أشرت بالرأي. كما ترى ففعل أشرت من الشورى، والنبي(ع) يأخذ بالمشورة، وهكذا يأمرنا تعالى أن نتشاور لنصل إلى أفضل رأي.
ومما رزقناهم، ومن الذي صار معهم ليسدّوا به حاجاتهم ورغباتهم، من الطعام والمال... ينفقون، يصرفونه، ومن البديهي أن الكلام عن إعطائه للمحتاجين وليس عن إنفاقه على أنفسهم.
لاحظ اختيار الآية لأمور شخصية خاصّة بكل واحد منّا، كالصلاة التي لا يبدو لها علاقة مباشرة بالآخرين، واختارت أمره تعالى لنا بالشورى، وهي من أبرز نماذج اختيار أفضل القرارات في الحكومة

بما يمسّ عموم شؤون الناس.
النبي محمد (ع) أجرى الشورى في عامّة أموره كما وصلنا من تاريخه، وبعض الأحيان كان (ع) يوسّع الاستشارات، وأحيانا يستشير فقط من يثق بهم في الموضوع المحدّد... وأحيانا يرجع عن قراره إذا جاءه رأي صائب، وكمثال عن ذلك ما يروونه في الكتب عن رجلين طلبا من النبي (ع) منحهما أرضا قالا أنها لا تصلح لأي شيء... فمنحها (ع) لهما، وسمع بذلك الصحابي عمر وهو يعلم أن تلك الأرض يستخرج منها الناس ملحا للطعام، فأرجعهما إلى النبي (ع) وشرح له الوضع، عندها تراجع (ع) عن قراره... ومثلها حفر الخندق حول المدينة بمشورة من الصحابي سلمان الفارسي لمنع تقدم جيش الكفار في معركة الخندق... ومثلها العديد من الحوادث...
أنت تعلم مدى أهمية الشورى في النظم السياسية والتنفيذية الحكومية، نزولا إلى شؤون على نطاق صغير كقراراتنا العائلية في بيوتنا، وتعلم من التاريخ الفرق الهائل في حياة الناس بين الأنظمة المتمحورة حول شخص أو بضعة أشخاص أو حزب... وبين الأنظمة التي تعتمد الشورى المفتوحة التي توصل الرجل المناسب إلى المنصب المناسب...
للأسف، اختفت شورى الرسول(ع) من بعد الخليفة الرابع، ومن قبلها كان المسجد مجلس شورى عامّ لكل المسلمين، ولا يمنعون أي واحد منهم من الإدلاء برأيه إذا كانت المسألة عامّة، ولم يكن عند الرسول مستشارين محدّدين لكل أنواع الأمور... حيث في مختلف الأمور كان يعرضها علنا ويرى الردود ممن لهم علاقة بالموضوع، وبعدها يحسم رأيه اعتمادا على آرائهم... إلى أن صارت "الخلافة" الإسلامية ملكية ديكتاتورية محصورة بشخص حوله مستشارون هو يحدّد المستشارين ولا يسمع إلا لرأيهم... وصارت طبقية مانعة من مشاركة عموم الناس فيما سيصير حكومة عليهم من قرارات الدولة...
يكفي هذا المقدار من الكلام عن الشورى، وقد علمنا أن نواتها أمر إلهي مادح للذين ينظمون أمورهم على أساسها، تاركا سبحانه المساحة لنا بما يناسبنا لتحديد آليات عملها المناسبة لأوضاعنا

وثقافاتنا...
لا يوجد نظرية قرآنية سياسية تحدّد آليات نظم الحكومة، سواء ملكي أو رئاسي بلا انتهاء لمدة الرئاسة أو برلماني أو انتخاب الشعب مباشرة للرئيس أو... لأن الأساس القرآني هو تسيير أمور الناس بالصلاح، بغض النظر عن أي نظام يحقّق ذلك.
ثانيا لأن ظروف المجتمعات تختلف، فهناك مجتمعات واعية بالمجمل وبإمكان نسبة كبيرة من أفرادها تحديد خيرها من شرّها... هذه المجتمعات تتحمّل نظاما "ديموقراطيا" ينتخب فيه الشعب مسؤوليه... وهناك مجتمعات غالبية أفرادها فاقدة لأهلية فهم القرارات من مستوى الدولة بل حتى على مستوى بلدة صغيرة، وهذه المجتمعات يكون تطبيق نظام اختيارها للمسؤولين بنظام ديموقراطي، برلماني، مجلس شعب، مجلس أعيان... لن يكون إلّا نسخة محدّثة من الإقطاعية السياسية العمياء التي تنتخب الأكثر دعاية، أو الأقوى نفوذا...
في وجود شخص فيه أهلية الرئاسة من حسن الرأي وحسن الإدارة، لا مانع ديني من نظام رئاسي طويل أو قصير الأمد، وفي غيابه أو في توافر مرشحين آخرين، أيضا لا مانع من تداور السلطة بعد مدّة قصيرة أو طويلة، والآية هنا "مادحة" للشورى، على أنها من أنسب نظم الحكم عموما، وأمّا اختيار الآلية التطبيقية لاعتمادها، فمتروكة كمرونة وهامش لنا لنحدّد الأنسب بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة...
مشكلة البحث في هكذا مواضيع أن بعضنا مصرّ على كون القرآن حاويا لكل ما نريده وبالتفصيل، ورافضا لرؤية المرونة والهامش الذي تركه تعالى لنا عن قصد بما يناسب مختلف ظروفنا المتغيرة، وبدل عرض الباحث المسلم نفسه كطارح لنظم حكومية يراها مناسبة، تراه يطرح كلامه على أنها نظرية إسلامية قرآنية أو من السنّة النبوية، وهكذا يصير كلامه ديني في مقابل كلام الآخرين، علما أنه حاول تقييد نفسه بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وللصحابة... في مسألة تركها تعالى أصلا مرنة مع هامش لنتحرّك بما يناسب مختلف الظروف.

هي نفس التفاصيل التي يريدونها وبقوّة أن تكون موجودة في القرآن، ويخترعون لآياته معان تؤيد ما يريدونه، كآياتنا هنا بمدحها للشورى، فهي نفسها التي عنون لها تعالى بالعناوين العامة وترك التفاصيل كهامش مرونة لنا، وترانا نصرّ على تقييد أنفسنا بينما سبحانه لم يقيّدنا إلا بالعناوين الرئيسية التي لا يختلف فيها اثنان لوضوح صلاح ما يأمر به تعالى، لأن الأساس في كل الموضوع هو تسيير أمور الناس بالصلاح بغض النظر عن الأساليب المتعددة الممكنة والمناسبة للوصول إلى الصلاح.
لنكن كمسلمين صريحين مع أنفسنا، فما معنى إصرارنا على معرفتنا بكل شيء لأننا لدينا القرآن كمصدر إلهي؟ نكذب على أنفسنا ونرفض قبول ما يقوله الآخرون مما هو حقّ أو مقبول، ولم نكن نعرفه، ونقولبه من جديد بطريقة سخيفة مقحمين فيه آيات وأحاديث حتى يصير إسلاميا! بينما هم تعرّفوا على شيء جيّد لم نكن نعرفه ولم نسمع به من قبل ولم يذكره القرآن صراحة ولا تلميحا ولا حتى الرسول(ع) والصحابة خطر على بالهم! فأين المشكلة في ذلك؟
لماذا لا نقبل من الآخرين اقتراح نظام الحكم الأنسب لجماعة ما، طالما النظام مبني على القاعدة القرآنية بصلاح إدارة شؤون الناس، ونقبل من الآخرين تفوقهم علينا بالطب والهندسة...!
المشكلة أننا بانتسابنا للقرآن كمجموعة تميّزت عن الآخرين بدين، نرى أنفسنا مميزين، مميزين بدين الحقّ، مميزين بأفضل رسول... مميزين بدخول الجنّة لوحدنا... مميزين بلغتنا وبقرآننا وبقديسينا... وبالتالي يصير كل ما لدينا من عقائد وتشاريع وتراث، مميز وأفضل مما لدى الآخرين، ونرفض الاعتراف للآخرين بأنهم أفضل منّا في شيء ما، وإذا اضطررنا لاستعماله نحوّره ليصير إسلاميا، بل نجعله إسلاميا من الأساس والآخرون سرقوه!
لم نفهم قرآنه سبحانه الذي ركّز على الأساسيات تاركا التفاصيل كهامش مرونة لنا، وقد كرّرت لك جملة "هامش مرونة" حتى أني أنا ذات نفسي مللت من تكرارها، ولكن ولو لبضع دقائق كررتها وكررتها حتى ترسخ عندك، فاعلم أنها ستكون نقلة نوعية في فهمنا للهداية المعروضة علينا في كلامه تعالى.

ليس عيبا علينا كمسلمين التعلّم من الآخرين سياسيا واقتصاديا وقانونيا... فهو مثله مثل التعلّم من الآخرين الطبّ والهندسة والكيمياء والصيدلة... وللأسف فحتى هذه البديهة تجد من يرفضها مصرا على وجود وصفات طبية في القرآن لكل أنواع الأمراض! ويدّعي أن كل قواعد الفيزياء مذكورة في القرآن!
ليس عيبا التعلّم من الآخرين فقه القانون والتشاريع، مع الالتزام بالأساسيات القليلة جدا التي ذكرها تعالى من فساد وصلاح، فأساسا سبحانه خاطب في قرآنه كل الناس لتقويم ما اشتبه علينا معرفته من خير وشرّ بسبب فساد قلوبنا، ومن يظنّ أن قلوب المسلمين أحسن حالا بكثير من الآخرين، فهو واهم، والدليل واضح وضوح الشمس في اختلاف فقهاء المسلمين بين بعضهم، وصولا إلى هذيان بعضهم في الفقه والسياسة متمتعا بهالة قداسة عالم الدين ودعاية أتباع له أغبياء مثله أو مريضون قلبيا بنفس أمراضه الشريرة والإجرامية... وواضح وضوح الشمس في الفرق بين حكوماتنا الفاسدة المستهترة بأرواح وأموال وأوقات وصحّة وأمن... مواطنيها، ومستهترة بخيرات بلادها... وبين دول ليست إسلامية ولا دينية، ولكنها تحضّرت حتى صار المسؤول الحكومي من أعلى الهرم إلى أسفله، مجرد موظّف بمنصب رئيس ووزير ونائب... يقوم بمهامه على أكمل وجه وإلا لاختاروا غيره.
هناك مشكلة مرتبطة بالكلام عن الشورى ونظم الحكم الإسلامية، فعلى ما يبدو أن غالبية المسلمين مصرين على أن الحكومة على الناس تصير بتعيين إلهي للحاكم أو الملك أو الرئيس لأدارة الشؤون العامة للناس "خليفة الرسول"، ومنهم الداعون للإمامة ومنهم الناسبون للحكام صفات ترتبط به تعالى كالحاكم بأمر الله وظل الله على الأرض، والغالبية عموما يبنون أفكارهم على عنوان: خليفة الرسول محمّد(ع). وكأن وظيفة الرسول ووصفه بالنبوة تتضمّن أنه حاكم مدير للشؤون العامة للناس! فيصير الخليفة أو الإمام أو الحاكم معتمدا في شرعية منصبه على خلافته للرسول الإلهي الذي كان حاكما!
هذه ترهات ألصقوا لها تفاسير مزاجية لبعض آيات القرآن لتبرير

أفكارهم المسبقة التي أسقطوها على القرآن.
مختصر القول الواضح من القرآن والتاريخ، أن النبي والرسول وظيفتهما بالدرجة الأولى توصيل كلامه تعالى للناس، وهم كأشخاص مؤمنين فتكليفهم مساو لبقية المؤمنين في محاولة تطبيق شرعه تعالى، وتكليفهم التصدى والمساعدة في الشؤون العامة للحكومة إذا كان هناك حاجة لذلك.
أمّا حالة الرسول محمّد(ع) في حكومته على مجتمع المسلمين في زمنه، إنما هي تجربة خاضها (ع) "بنجاح منقطع النظير" بسبب فراغ الحكومة وغياب أي شكل رسمي لها، مع الحاجة لمركزية قرار في وجه ظروف في غاية الصعوبة من محيط معاد محارب... فدفعه (ع) لتولّيها تمحور العديدين حوله مستأنسين برجل فيه صفات أهلّته ليجعله تعالى نبيا رسولا.
حكومة النبي محمّد(ع) ليست بتعيين إلهي له كحاكم، بل بتوجّه الظروف نحو قاعدة مؤمنة أذعنت بتصدّيه (ع) للحكومة لتطبيق كلامه تعالى، وذلك بسبب غياب أي بديل آخر لإدارة الشؤون العامة للمسلمين.
شؤون الدولة لها مفردات كثيرة وتحتاج لخبرات وطاقات بشرية لإدارتها ولاختيار النظم الأنسب، وما فعله الرسول(ع) بشؤون الحكومة، ناتج عمّا رآه الأنسب والقابل للتطبيق، وحتى لو كان لديه (ع) أفكار عن حكومة أنسب لزمنه عبر تعيين وزراء وانتخاب نواب وفصل السلطة القضائية عن التنفيذية والتشريعية... فكل هذا الكلام في الهواء لأن عقلية الناس في حينها لن تتقبل ذلك.
لقد أدار الرسول(ع) الأمور بطريقة رائعة حتى استطاع بناء نواة دولة في محيط عدائي وبعيد كل البعد عن أجواء الحكومة، وكل ذلك فعله (ع) ضمن الخطوط المسموح بها إلهيا، حيث لم يعتد، ولم يأمر بقتل بريء، واستمال الوجهاء المعارضين للصلاح بدلا من تصفيتهم "المؤلفة قلوبهم"، لا للحفاظ على ملكه، بل لدفع شرّهم عن الناس.
الكلام يطول في العناوين والتفاصيل، ومختصره أن الرسول محمّد(ع) كان شخصية فريدة بين الرسل، وبين القادة عبر التاريخ، وتجربته في الحكم واضحة النجاح لأنها بنت نواة دولة من الصفر

في أصعب الظروف، والاستفادة منها لا تكون عبر إعادة تمثيلها، فلتلك الحكومة زمانها وعقلية أهلها وتحدياتها الخاصة، ولبقية المجتمعات عبر التاريخ خصائصها التي تحتاج لنظام حكومة يناسبها، بشرط المشورة، لأنه لا يوجد بشري عليم بكل الشؤون التي تمس حياة الناس، حيث هناك الشؤون العسكرية والأمنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية و... وتحتاج للمشورة من متخصصين أو أصحاب رأي ينقدح ويكون الأصلح.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ{39})

والذين إذا أصابهم البغي، بغا عليهم أحد ما، قام أحد ما بعمل مباشر يقصدهم به، وسياق الكلام عن تعدي أحدهم عليهم بسوء ما، هم ينتصرون، هم يعملون على تحقيق ما يريدونه فلا يخنعون تحت الباغي بل يردّون بغيه بما يناسب، بالكلام المضاد لتصويبه أو بتنحيته عن السلطة والتشريع... أو بالحرب العسكرية أو الاقتصادية... فهم لا يبغون ولكن إذا حصل عليهم بغي فهم لا يعيشون معه بل يضادونه حتى الانتصار عليه.

البغي عامّ وليس حصريا للاعتداء الجسدي، أو بالقتال، فهناك بغي تسلّم السلطة قهرا وغصبا، وهناك بغي بتشاريع ظالمة... والمؤمنون الحقيقيون يرفضون كل أنواع البغي، ولا يسكتون عنه، بل ينتصرون، فيعملون على تحقيق ما يريدونه من حقّ.

ألفت انتباهك لما يقوله البعض عن تصنيفهم للأديان أنها محصورة بالعلاقة بين العبد وربّه سبحانه، فهذا جانب من دينه تعالى، ولكن لا معنى للدين الإلهي إن لم يكن منظّما "بالعناوين" لعموم شؤون حياتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فيتحدّث البعض عن أديان مسالمة، ويصف دين الاسلام بأنه يدعو للعنف... حتى صار الكثير من المؤمنين يعيشون عقدة الدفاع عن الاسلام ليروّجوا أنه دين محبّة... فما هي الأمور العنيفة التي يأمر بها الاسلام ونستحي منها؟ وهل قتال الأعداء المقاتلين معيب؟ أم معاقبة الظالمين والمفسدين معيب؟...

إن الخلط بين الممارسات الإجرامية لبعض المسلمين وبين الدين الإلهي "القرآني" لدمجهما مع بعض ليصير تشريع وسلوك البعض الإجرامي عنوانا للدين الاسلامي، فهذا ليس مبررا لأحد حتى يهجم على دينه تعالى "الإسلامي" الواضح أمام الجميع من هذا القرآن أنه يأمر بالعدل والإحسان... وقتال الأعداء بشروط مذكورة في القرآن بوضوح.
الذي يروّج أن المسيحية أو اليهودية دين التسامح فاصلين بذلك بين الدين المسيحي واليهودي وبين الإجرام الذي يرتكبه المسيحيون واليهود، وفي نفس الوقت يدمجون جرائم المسلمين مع دين الإسلام "دينه تعالى"، وهم يعلمون ماذا يفعلون، وهم يعلمون أنهم يتعامون عن قصد عن الجرائم التي ارتكبها منتمون لأديانهم وبإسم تديّنهم... ولا يزالون... فهؤلاء لهم حساب عسير عنده تعالى، لأن هذا دين إلهي وليس للمسلمين، وتشويهه تشويه لدينه تعالى، والمسلمون المشوّهون لدينه تعالى وفي نفس الوقت يدّعون تطبيقهم لدينه، فهؤلاء منافقون وفاسقون أقرب للكفر منهم للإيمان ولهم حساب عسير.

(وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{40})

وجزاء سيّئة سيئة مثلها، من قام بعمل سيّء معك أو مع مجتمعك فلا يحقّ لك الردّ عليه بعمل سيّء أكبر وأكثر مما فعله معك، بل يحق لك الردّ بالمثل بالتمام بدون زيادة، فمن عفا، فمن مرّ عن السيئة ولم يتوقّف عندها ليطالب بحقّه، وأصلح، وقام بإصلاح ما بينه وبين الباغي المسيء، على معنى مفهوم الآية 34 من سورة فصلت "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"، فلم يقابل السيّئة بالسيئة ولم يعاد من أساء له بل أصلح ما بينه وبين المسيء من نفور أو كره أو عداء... فأجره، فما سيحصل عليه من عفوه وإصلاحه، على الله، فهو سبحانه يخبرنا بأنه حدّد ما يستحقّه العافون المصلحون، وتعلم أن الأجر الإلهي من مستوى إلهي، من مغفرة وثواب، ليطمع فيه المؤمن.

للأسف، أدبيات المنتمين لدينه تعالى على المستوى النظري متماشية مع كلامه تعالى بالعفو التسامح والمحبة... ولكن خلال التطبيق نحن أبعد ما يكون عن العفو عن الآخرين، حيث نراكم الأضغان والكره ولا ننسى سوء ما فعلوه حتى لو تغيّر سلوكهم... بل وننصح بعضنا في هكذا مواقف أن لا نسامح ولا نتغاضى وأن نردّ السوء بأكبر منه، فمن شتمك اضربه! ومن ضربك فاقتله! ومن حاول قتلك أو قتل عزيزا عليك فعذّبه قبل قتله! وكما ترى فهذه مخالفة لكلامه تعالى الذي يجيز لنا على الأكثر بالردّ على سيئة بمثلها لا بأكبر أو أكثر منها، ويحفزّنا على العفو والإصلاح، ويعدنا بالأجر عليه منه تعالى.
من عموم مفاهيم القرآن ترى أن فكرنا ونفسيتنا هما اللذين سنتحاسب عليهما في الآخرة وهما حاكمان على أعمالنا، فما معنى مغفرته تعالى وشفاعته لك؟ هل هو إلا أنك فاعل لسوء ولكن فكرك ونفسيتك فيهما ما يساعد على نيلك للعفو؟ هل أنت لئيم صلب عنيد... مصرّ بفكرك ونفسيتك أنك لست مسيئا، وستنال المغفرة؟ لا، ومن هنا من الدنيا تذهب للآخرة بقلب "بأساس وفكر ونفسية" سليم أو فيه سلامة بدرجة مقبولة حتى تنال العفو، ولا معنى لصيران فكرك ونفسيتك في الآخرة سليمة، فهناك فقط الحساب على ما كنت عليه في الدنيا، لأنه في الآخرة سيؤمن الكافر ويوحدّه تعالى يقينا، فهل سينجّيه إيمانه هذا؟ لا، ونفس الشيء إذا لم تصل إلى الآخرة بقلب سليم أو فيه سلامة مقبولة، فلن يعفو سبحانه عنك.
من هنا تعفو وتصفح، وإلا ستصل إلى الآخرة حاقدا كارها مبغضا... للآخرين الذين أساؤوا إليك، وأنت لديك مجموعة من الناس تكرهك وتبغضك لأنك كنت قد أسأت لهم، وسيطالبونك في الآخرة بحقّهم، وأنت ستطلب منهم العفو! وإن لم يعفوا الناس عنك فستتعذّب...
إن وصلت إلى الآخرة وكنت عفوت عن الناس في الدنيا، عندها سبحانه سيعفو عنك كما تقرأ في الآية 22 من سورة النور "وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"، وسيشفع سبحانه لك جاعلا الآخرين يعفون عمّا فعلته لهم من سوء.

أمّا إن وصلت إلى الآخرة ولم تعف عن الآخرين، فبأي عين ستطلب من الآخرين العفو عنك؟ وبأي عين ستطلب منه تعالى العفو عنك؟
هذا كلّه ضمنا مشمول بالآيتين 88 و 89 من سورة الشعراء "يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ".
تلاحظ الآية السابقة تحدّثت عن البغي والانتصار عليه، مما يعني أن الباغي قاصد لعموم فرض أي سوء عليك من حربك أو لأذيتك ماليا أو نفسيا أو... ولن يتوقّف عن ذلك حتى انتصار بغيه، وهنا الكلام عن الذي بغى بالإساءة إليك أو إلى مجتمعك، وكانت إساءته من النوع الذي يمكنك العفو عنه وإصلاح الفساد، فهي مثلا من نوع تكالب الناس على الدنيا بأمور يمكنك التغاضي عنها، فلا تردّ على بغيه بإساءة أكبر، واعفو عنه وأصلح بعملك ولا تكن مثله ترتكب السوء، وعلى كلّ حال فهو ظالم، وإنه تعالى لا يحبّ الظالمين، فتقييمه سبحانه سلبي سيّء للذين ليسوا عادلين ولا منصفين، فلا تكن أنت ظالما.
كثيرا ما نقع في هذا الخطأ، وننسى بأننا منتمون لدينه تعالى، ويأخذنا العنفوان والغضب، حتى لا يبقى فرق بين وصف تصرفاتنا وبين وصف تصرفات الذي آذانا، فأولئك ظالمون، وإن أخذت حقّك بالعدل وبالضبط أو عفوت، فهذا فرق بينك وبينهم، أمّا أن تظلمهم كما ظلموك، فما الفرق بينك وبينهم؟ وما معنى إيمانك وانتسابك لدينه تعالى؟
بهذا التفسير البسيط ترى فرقا بين ما قيل في بعض الكتب من تعامل صلب مع الآيات، ليجعلها بلا مرونة، وكأن حالات تعارض مصالح المؤمنين مع الآخرين دائما حدّية وحربية قتالية، لا، فالخلافات الناشئة من بغي الآخرين لها مستويات مختلفة، وبعضها يجب ردّه بالانتصار بالعمل على تغيير الواقع، وبعضه يتحمّل العفو عنه.
كمثال عن بغي من غير المسموح السكوت عنه بل يجب الانتصار عليه، هو حكومة الفاسقين والمنافقين لمجتمع مؤمن، فممنوع موالاتهم ويجب تنحيتهم... وكمثال عمّا يمكن العفو عنه، هو عموم أي خلاف أثره محصور جدا، كخلاف على موقف سيارة والخلافات العائلية... وهكذا وصولا إلى حالة سوء من العيار الثقيل ولكن أثرها

محصور بين أفراد كالعفو عن قاتل يطلب العفو كما ورد في الآية 178 من سورة البقرة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ"، إلى هذا المستوى يصل أمره تعالى لنا بالعفو حتى عمّن قتل عزيزا علينا وطلب منّا العفو.

(وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ{41})

ولمن انتصر بعد ظلمه، من طالب بحقّه من الذي أساء له، فأخذ حقّه ممن لم يكن محقّا منصفا معه، فأولئك ما عليهم من سبيل، لا مسلك لك عليهم لتمنعهم، فلا يسمح لك تعالى بالوقوف في وجهه لتمنعه من أخذ حقّه، أو أن تلومه أو تعاتبه... ويأمرك سبحانه أن لا تعتبره مسيئا ولا بأي شكل.

العفو والإصلاح أفضل إن كان هناك مجال لذلك، ولكن أخذ الحقّ حقّ أعطاه الله تعالى للمظلوم، فلا تعارضه أو تقف في طريقه لتمنعه من ذلك ولتفرض عليه العفو عمّن ظلمه.

في نظرة الله تعالى يبقى العمل السيّء توصيفه سيّئا، فمن بدأ بالعمل السيّء فهذا واضح أنه سيّء، ومن ردّ عليه بعمل سيّء فإن النظرة الإلهية للعمل السيّء لا تتغيّر، تقييم العمل السيّء لا يتغيّر، ولكنه تعالى سمح بالردّ على الظلم والبغي. هذه قاعدة إلهية عامة، فالسيئة سيئة ولا يتغير وصفها، حتى لو عن غير قصد قام الرسول بعمل كانت نتيجته سيّئة، وحتى لو كان يقصد الخير ولكن بالخطأ حصل سوء، فالتصنيف الإلهي للسوء لا يتغير، لأن الخير والشرّ معيارهما ثابت ويتأسسان من صفاته تعالى ذو الأسماء الحسنى وخالق كل شيء...

أخبرنا سبحانه مرارا بقراره بالعفو وغفران السوء من المؤمنين إذا كان غير مقصود، ويغفره تعالى إن استغفروا منه، وهنا الآيات تخبرنا أن من يطالب بحقّه ويضرب الذي ضربه، أو يقلع عين الذي قلع عينه... فهذا العمل يبقى تصنيفه "سيّء" ولكنه تعالى سمح له به

مبررا ذلك بأخذ حقّه، وينبهنا بأنه ولا بأي طريقة يحقّ لنا الوقوف في طريق من قرّر أخذ حقّه، أمّا إن كان العفو فيه مصلحة عامّة وله مجال للتطبيق، فنحن مأمورون بإصلاح ذات البين، فنحاول إرضاء صاحب الحقّ، ولكن إن رفض، فلا يحقّ لنا حتى لومه أو معاتبته...

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ{42})

إنما السبيل، لكم مسلك فقط، فهناك سماح منه تعالى للوقوف بوجه أو الاعتراض، على الذين يظلمون الناس، فمن لم يعامل الناس بالحق والإنصاف فهذا قد أعطانا سبحانه عليه سبيلا، سامحا سبحانه لنا بالتعامل معه لردّ ظلمه ومنعه من الظلم ومعاقبته.
وعلى الذين، يبغون في الأرض بغير الحق، ولكم سبيل على الذين يقومون بأعمال يقصدون منها السوء وليسوا منصفين ولا محقّين، وهنا الصورة أشمل وأكبر عن عمل عدواني حربي عسكري اقتصادي أمني صحي... على جماعة من الناس، فمن قام بعمل عدواني ضدّ الذين بغوا عليه، فهذا معه حق ولا سبيل عليه، فلا يحقّ لنا الوقوف بوجهه أو منعه أو عرقلته أو لومه لأنه سبحانه قد جعل له سبيلا ليفعل ذلك، ومفهوم عموم القرآن يشير لوجوب قيامنا ضد الحاكم الظالم، فهو من مصاديق البغاة في الأرض بغير حق...
أولئك، الظالمون الباغون بغير حقّ، لهم عذاب أليم، لهم ضرر لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.
لاحظ كيف أبقت الآية تصنيف ووصف العمل السيّء بأنه بغي سوء، سواء أكان بحقّ أم بغير حقّ، فهناك بغي بغير حقّ، وهناك بغي بالحقّ، وهي الحالة التي تردّ فيها على بغي المعتدي.
هذا الاستمرار لتوصيف الأمور السيئة بأنها تبقى موصوفة بالسوء مهما اختلفت الظروف، هو مبدأ إلهي منتشر في كل كلامه تعالى، وتراه جليا في الآية 11 من سورة الرعد "... وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ"، فحتى عقاب الكافرين، العذاب الذي يستحقونه بسبب كفرهم، هو عمل سيّء، ولا يتنافى ذلك مع

وصفه تعالى بالحميد، لأن عقاب الظالمين عمل حميد، عمل حقّ جيّد. نفس النظرة للمؤمن الذي اضطر لأذية من اعتدى عليه، فهذا عمل سيّء، ولكنه مسموح به ولا عقاب عليه لأنه تعالى سمح بذلك وتبريره أخذ الحقّ... وهو تقليد لتطبيقه تعالى للعدل حين يعذّب المجرمين.

(وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ{43})

ولمن صبر، ومن بقي يتصرّف عن وعي ودراسة ولم تفلت أعصابه فتصرّف بعقلانية، وغفر، وسامح من أساء معه، إن ذلك، الصبر والغفران، من عزم الأمور، يوصف بأنه أمر في غاية الشدّة في قرار نهائي، وليس الصبر والمغفرة ضعفا أو وهنا أو قلّة قيمة، بل هما من الأمور الشديدة الصعوبة التي يحبّنا تعالى أن نفعلها.
عادة نرى الجبان والضعيف يسكت ولا يردّ على من ظلمه وبغى عليه، وربما لو استطاع الرد لردّ، وهنا الآية تريدنا أن نرمي هذا المفهوم، ونستبدله بمفهوم: أنت قوي ولديك قوة وقادر على الردّ، ولكن الصبر والغفران هما العزم الحقيقي وليس القوّة على الردّ. أنت تثبت بأنك أقوى إن لم تردّ، ويكون لديك قوّة ممدوحة.
الآيات عرضت ناحتين، ناحية وقوعك تحت البغي ممن لن يتوقّف حتى يستحكم بك ويستمر بالبغي، فهذا يجب أن تنتصر عليه، وتعرض الآيات حالة استطاعتك إيقاف الضرر ممن ظلمك، وتوقّف، وليس لديه نيّه لتكرار الظلم، أو ظلمك ولكن بشكل يمكنك تحمّله... هنا تأمرك الآيات بالصبر والعفو الغفران، وتعدك بأجر من الله تعالى، وإن قرّرت أن تأخذ حقّك فيمكنك ذلك ولا يحقّ لبقية الناس أن يقفوا في طريقك ما لم تتعدّ حدودك في الردّ، وكان ردّك فقط بقدر ما بغوا عليك.
بقي شيء تعرضه الآية هنا عن العزم، لأن الدارج في الأدبيات التي يتساهل فيها الناس وصف الوقاحة بالجرأة، ووصف الاعتداء على الآخرين بالشجاعة، ووصف الساكت عن الشتيمة والإهانة والساكت عمّن اعتدى عليه ضربا... بأنه جبان. هذه أدبيات حيوانات الغابة

وليست أدبيات منتمين لدينه تعالى، فالذي لا يوقّر ويتهجّم على الآخرين بالألفاظ النابية والشتم وسلب حقوقهم واتهامهم بالباطل... هذا وقح لئيم خبيث وليس شجاعا. المفتعل لعراك أو الداخل فيه تعديا على أبرياء أو أصحاب حقّ، هذا معتد ظالم شرير فاسد... وليس شجاعا.
الآية هنا ترينا مدحا إلهيا بوصف العزم، فهو وصف لمن صبر وغفر وعفا عمّا يمكن تمريره لأن أثره محدود.

(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ{44})

ومن يضلل الله، من لا يضعه تعالى على الطريق الصحيح، فما له من ولي، فلن يجد من يعتبره تابعا له، والكلام هنا عن التابعية من مستوى إلهي، فلن يجد من يلي أمره ليكون متابعا مسؤولا عنه، من بعده "سبحانه"، فهدايته سبحانه لنا هي استجابتنا لدعوته لنا لدينه، والضلال هو أي شيء آخر.
وترى الظالمين، ويصير عندك صورة محدّدة للذين لم يكونوا منصفين ولا محقّين حين تركوا ولايته تعالى، فلم يكن معهم حقّ بتركها، تراهم، لمّا رأوا العذاب، عندما صار عندهم صورة محدّدة عن الضرر لهم، ومعلوم أن الكلام عن يوم القيامة وما بعده، يقولون: هل إلى مردّ من سبيل؟ هل يوجد طريقة لتردونا فيها إلى حياة نعيش فيها الامتحان مثل التي كنّا فيها في الحياة الدنيا؟ طبعا هم يطلبون فرصة ثانية على أساس أن يرجعوا إلى دار الامتحان ويغيّروا سلوكهم ولا يكونوا ظالمين، ولكن هذا لن يحصل، ومن الآية هنا ومن الآية 47 الآتية نعلم أن هذا الكلام بلاغ للجميع، فلا مردّ من الآخرة إلى حيث كانوا في دار امتحان، فلا تفكّروا بالموضوع.
فهمنا من الآيات السابقة أنه تعالى ولي المؤمنين، فيكون وليّهم حين ينتصرون على البغي، ووليهم إذا ما صبروا وعفو وغفروا لمن أساء لهم "إذا كان للعفو إمكانية"... والنقطة المفصلية أنه تعالى ولي المؤمنين حين يسيئون لمن أساء لهم، وحين يبغون بالحق، وحين

ينتصرون على البغي، فلا يعتبرهم سبحانه ارتكبوا بغيا أو سيّئة. أمّا من لم يستجب لدعوته تعالى فسيقوم بأعمال سيّئة وسيعتدي وسيبغي، والنقطة المفصلية أنه حتى حين يردّ على سيئة بمثلها، وحين يبغي على من بغا عليه، فهو أيضا سيتحاسب على ارتكاب السيّئة، وحين يغفر ويسامح من أساء له فلن يحصل على الأجر، لأن أعماله حابطة فاقدة لقيمتها.
تذكّر دائما أن السيئة ستبقى سيئة، فالقتل سيئة سواء قتلت بريئا أو قتلت القاتل لنفس بريئة، أو ضربت ظلما بريئا أو ضربت من ضرب المظلوم البريء... ولكنه سبحانه رخّص فقط للمؤمنين بأخذ حقّهم من الآخرين، وسيغفر سبحانه لهم هذه السيئة، بشرط أن يردّوا السيئة بمثلها بدون زيادة.
تركيز السورة على الولاية له تعالى، ومن أثرها العملي مغفرة سيئة المؤمن حين يردّ على من أساء له وبغى عليه، ويحصل على الأجر إذا عفى وغفر لمن أساء له "إذا كان العفو ممكنا"، وأما من لم يواله تعالى فسيتحاسب على كلّ الأحوال ولن ينال الأجر مهما فعل.
نتذكّر أنه من المستحيل أن يوجد شخص يريد أن يؤمن ولكن الله تعالى يقرر إضلاله، مستحيل، وبما أن هذا واضح جدا، فالآية تقول أن من يضله ربنا سبحانه ويصير على الباطل والسوء، فهذا الشخص لن يهتدي أبدا، وهذا الشخص بقرار منه لم يكن يرغب أبدا في أن يكون مؤمنا، ولذلك يتركه سبحانه يضل ويتيه في الطرقات. وهذا المعنى يسري على كل سياق الآيات التي ذكرت إضلاله تعالى للناس.
عادة أذكر لك "وسأذكر لك" بقية ما يرتبط بهذا المفهوم، ولكن سياق بعض الآيات قد لا يقصده أو يقصد واحدة منها فانتبه لذلك، لأنه سبحانه يرى نفسه قادرا على إجبار أي بشري على الإيمان وبطرق عديدة، مثلا يتلاعب بعقله ليجعله كالآلة المؤمنة، أو يعذّبه هنا في الدنيا أشد العذاب حتى يستقيم... ولكن سبحانه لن يفعل هذا بل سيترك الإنسان حرّ في اختياره، هكذا يرى نفسه تعالى أنه هو أضلّه لأنه قادر على إجباره على الاهتداء ولم يجبره، هذا من ناحية.
من ناحية ثانية فسبحانه المانح لنا لحرية الإرادة، وقد صمّمنا بقدرة على اختيار الضلال أو الهدى، ومثلما ينسب سبحانه لنفسه نزول

الماء وخروج الزرع لأنه هو صمّم وخلق البيئة التي قصد سبحانه منها نتيجة نزول الماء وخروج الزرع، ومعلوم أن نزول الماء وبروز النبات لها آليات وشروط معلومة، ورغم ذلك ينسبه تعالى لنفسه أنه هو فعله، وبنفس النظرة ينسب لنفسه تعالى إضلالنا بسبب ما جعله من قدرة فينا على اختيار الضلال بقرار منّا.
من ناحية أخرى فطريق الهدى واحد لا ثاني له وهو الطريق الإلهي، ومن تركه لن يهتدي أبدا، وعمليا فمن لم يكن مؤمنا، هذا مهما فعل سيكون على ضلال، فإن أساء إلى الأبرياء فهو في ضلال وسيتحاسب، وإن ردّ إساءة من أساء له فهو في ضلال وسيتحاسب، وإن غفر لمن أساء له وهو لا يزال على الضلال فلن ينال أجرا... لن يغيّر سبحانه "دين الناس" حتى يتماشى مع أفعال الذين لا يوالونه سبحانه، وافتراضا لو أقرّ تعالى صحّة ما يفعله الموالون لغيره، وافتراضا لو فعلوا ما فعلوه عن طيبة قلب منهم، أو عن تجاهلهم أو استسهالهم واستخفافهم... بالأمور، اعتبر سبحانه موالاتهم لغيره عملا عاديا بل واعتبره إيمانيا صحيحا... لو افترضنا ذلك، عندها يكون الجميع على الهدى وسبحانه موافق على أعمالهم... ولكن لا، بل هناك قرار إلهي واضح بأن الهدى محصور فقط وفقط في الحقّ وهو نفسه كلامه سبحانه، ولن يهدي تعالى الذين يخالفون كلامه، ولن يعتبر سبحانه أعمالهم الضالة هدى، وعلى هذا المعنى العديد من الآيات ومنها الآية 18 من سورة السجدة "أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ".

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ{45})

وتراهم يعرضون عليها، تنقل لنا الآيات مشهد الظالمين وهم واقفون في يوم القيامة وقبل دخولهم إلى النار حيث يصير عندك صورة محدّدة لهم أثناء عرضهم على النار أثناء محاسبتهم في الاخرة بعد بعثهم من الموت، عبر إظهارهم أمام النار كحدث له أهمية كبيرة،

وبتقريبهم لناحيتها بحسب ما نفهم من عموم القرآن وخصوصا من الآية 46 من سورة غافر "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا..."، تراهم، خاشعين، فيشعرون بالضعف وفقدان القدرة بشكل عام، من الذلّ، من انقيادهم لأوامر غيرهم غصبا عنهم، حيث تعرضهم الملائكة(ع) على النار غصبا عنهم ولا قدرة لهم على الممناعة ولا الهرب، ينظرون، يوجهون اهتمامهم العام، من طرف، من ما بين الجفنين، خفي، بشكل مستور غير واضح، فيحاولون رؤية النار ولكن بشكل غير مباشر وذلك خوفا من منظرها المرعب... فهم يريدون النظر إليها لمعرفة ما هو شكل المكان الذي سيذهبون إليه بعد انتهاء الحساب، وفي نفس الوقت يتحاشون النظر مباشرة إليه بسبب رعبهم منه.
أفكارهم ونفسيتهم الدافعة لهذه النظرة الخفيّة للنار يمكنك القول عنها أنها خليط من مختلف الأفكار والمشاعر، فهم يخترعون أملا خادعا بأنهم سينجون منها إذا لم يروها بشكل مباشر، أو يريدون نفي أي علاقة لهم بها بالتمنّع عن النظر إليها بشكل مباشر، أو من شدّة الخوف منها يحاولون تجاهل وجوده، أو...
تذكّر أن "الطرف" بسكون الراء كلمة مستعملة لتدل على النظر من بين الجفنين "طرفين: سكون على الراء"، وهي اشتقاق "غير صرفي" من الطرف بالفتحة على الراء، الذي يعني: الناحية من الشيء. كلاهما لهما نفس المعنى تقريبا ولكن مع حركة السكون على الراء تصير كلمة طرف في استعمال العرب مخصّصة أكثر للعين.
وقال الذين آمنوا، قال الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بدينه تعالى: إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم، "في يوم القيامة"، فإن كان وصف الخسارة بكل معناها يصدق على شيء ما كفقدان لشيء له أهمية كبيرة، حيث فقدان النفس لقيمتها هو أكبر خسارة، مقابل من خسر ماله أو بيته أو شركته... فمن صارت نفسه مهانة بلا قيمة عنده تعالى فهذه أكبر خسارة، وهي خسارة رحمته تعالى ومغفرته وثوابه ونهايتها الدخول إلى النار.
والخاسرين هم الذين خسروا، أهليهم يوم القيامة، ففي زمن القيام من الموت خسروا الأشخاص المنتسبين لهم، كأمّهم وأبيهم وأولادهم

وأعمامهم وأخوالهم... فالمؤمن لا يخسر أهله لأنه يشفع لأهله المؤمنين أو هم يشفعون له إن كان إيمانه ضعيفا، أمّا الكافر فمن البديهي أنه في الآخرة لا يشفع لأهله، وتركيز الكلام معه الآن كخبر له تنقله الآية عمّا سيحصل في الآخرة، وأهله إن كانوا مؤمنين فأيضا لن يشفعوا له.
ألا إن الظالمين، بالتأكيد فإن الذين لم يكونوا منصفين ولا محقّين حين لم يؤمنوا، هم بالتأكيد، في عذاب مقيم، في ضرر لا يغادرهم ولا ينصرف عنهم، فهم خالدون فيه.

(وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاء يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ{46})

وما كان لهم، للظالمين، من أولياء، من يعتبروهم تابعين لهم، ينصرونهم من دون الله، فالمؤمنون الموالون له تعالى سيلي سبحانه أمورهم، فهم تابعون له تعالى وهو سبحانه يعاملهم على أساس أنهم تابعون له، أمّا الظالمون الذين يتعرضون للعذاب في الآخرة ويريدون الخلاص منه، فلن يجدوا من يعتبرهم تابعين له ليحقّق لهم الخلاص من العذاب.
ومن يضلل الله، فيترك سبحانه الشخص على الضلال الذي اختاره بإرادته ولا يجبره سبحانه غصبا عنه على الاهتداء، مع قدرته تعالى على إجباره غصبا عنه على الاهتداء عبر التلاعب ببرمجة أفكاره مثلا، ولهذا يعتبر سبحانه أنه أضلّه لأنه خلقه بحرية إرادة واختيار، وتركه يضلّ كما اختار... فما له من سبيل، فلا يوجد لديه أي مسلك للانتصار من العذاب الإلهي، فلن ينجو ولا بأي طريقة من العذاب.
أخبرنا سبحانه مرارا وتكرارا بأن كل عمل نقوم به ومخالف لأوامره، فهو ضلال ونهايته العذاب، وأخبرنا سبحانه صراحة أن كلامه فقط هو الهدى، وبعض الناس من عندهم يخترعون أنه تعالى لا يعتبر أعمالهم المخالفة للحقّ ضلالا! ويقولون أنه تعالى سيجازيهم بالحسنى حتى لو لم يلتزموا بدينه، فالهدى الإلهي في نظرهم مطّاطا وليس على المسطرة، وبذلك يكون المؤمن الملتزم بدينه تعالى على

الهدى وهم أيضا على الهدى، فتأتي الآيات الكثيرة لتخبرهم أن الهدى معياره ثابت، ومحصور بالحق والصلاح، وهو نفسه ما يقوله تعالى ويأمرنا به، ومن لم يكن على كلامه تعالى فسبحانه لن يهديه، ولن يوسّع سبحانه الهدى ليشمل ما يفعلونه، لا، ومن يضلل الله تعالى فما له من هاد، فمن لم يكن على كلامه تعالى، لن يجد من يوصله إلى الغاية الصحيحة.
هنا الكلام عن نتيجة الهدى والضلال، عن وصول الشخص إلى الجنّة، وعمليا فالضالّ ما له من سبيل للوصول إلى الجنّة والنجاة من النار لأنه تعالى أضلّه، فلم يعتبره من مواليه ليهتم به...
تذكّر دائما أن محور السورة حول ولايته تعالى لتفهم كثرة تكرارها لكلمة ولاية بمشتقاتها المختلفة وبتعابير مختلفة، لأن السورة تريك الجوانب المختلفة المتعلقة بولايته تعالى وبتركها.

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ{47})

استجيبوا لربّكم، حيث دعاكم المسؤول عنكم من مستوى إلهي لولايته وحده من المستوى الإلهي فلتكن ردّة فعلكم الالتزام بها، من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله، فيوم القيامة قادم حتما وحين يأتي لا يمكن لأي أحد ردّه ليمنع حصوله لأنه تعالى أمر به، فمن لم يستجب هنا للدعوة ليواليه تعالى، فحين يأتي يوم القيامة لن يكون لديه فرصة ثانية للاستجابة للدعوة الإلهية. الكلام هنا على معنى ما ورد في الآية 158 من سورة الأنعام "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ".
ما لكم، ليس لكم، من ملجأ، مكان أو شخص تلجؤون لتحتموا به، يومئذ، في يوم القيامة وما بعده.
وما لكم من نكير، وليس لكم أحد ينكر معترضا لما يحصل معكم، فيقول أن ما يحصل معكم منكر لا يعرف حصوله مع الذين في

حالتكم، بل بالعكس فلن ينكر ما تتعرضون له لأنكم تستحقونه.
تذكّر أننا في هذه السورة ومن مجمل القرآن فهمنا أن العمل المنكر الذي عمليا هو ما ينكره العقلاء لأنهم يرونه غير مناسب، ومبني على المعنى العام للمنكر من مقابلته مع المعرفة حيث يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم لا يتطابق مع ما لديه، فلو رأيت تعذيبا في الآخرة لمؤمن عامل للصالحات فستنكره، لأنك لن تقبله بناء على المفاهيم التي عندك، بينما لو رأيت مجرما يتعذّب، فلن تنكر ذلك لأنه يستحقه، لأن تعذيبه يتماشى مع ما تعرفه من ضرورة معاقبة المجرم.
هذا المفهوم القرآني منتشر بعبارات مختلفة في العديد من السور، حيث لا أحد من المجرمين في الآخرة سيقول: هذا العذاب ظالم، أو شديد زيادة عن اللزوم... وأيضا لا أحد من الآخرين سينكر عذابه، بل سيرى أن العذاب الشديد هو على قدر ما يستحقونه بالضبط.

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ{48})

فإن أعرضوا، فإن لم يهتمّوا بما تقوله عن الدعوة الإلهية لموالاته تعالى فقط ولم يهتمّوا بالإنذار، فما أرسلناك عليهم حفيظا، فلم نوكلك بأن تكون راعيا صائنا لهم، والكلام هنا عن حفظهم من الضلال، فأنت لست مسؤولا عن ضلالهم فلن نحاسبك كما لو أنك مدير لمصنع ومسؤول عن الإنتاج والعمّال، لا، إن عليك إلا البلاغ، ففقط مطلوب منك تبليغ الرسالة الإلهية، فتنقل لهم ما يصلك وحيا منه تعالى من أوله لآخره.
وإنا إذا أذقنا الإنسان رحمة منّا، فشعر وتلمّس الغالب الأعمّ من الناس عنايته تعالى لما فيه مصلحتهم، فرح بها، صار عند الإنسان شعور إيجابي بالراحة والرضا عمّا حصل معه، وإن تصبهم سيّئة، وإن حدث مع الغالب الأعمّ من الناس شيء سيّء كمرض أو حادث أو خسارة... بما قدّمت أيديهم، بسبب الذي فعلوه بأنفسهم وبإرادتهم لأنفسهم، كما نقول قدّمت لي الطعام، فهم قدّموا الأعمال السيئة

لأنفسهم وأخّروا الأعمال الحسنة فلم يقوموا بها، وقبل حصول السوء معهم وبسبب إهمالهم أو إهمال غيرهم أو استهتارهم أو استهتار غيرهم أو بغيهم أو بغي غيرهم عليهم... حدث شيء سيّء، فإن الإنسان كفور، فوصف حالة الغالب الأعمّ من الناس بسبب طبيعة خلقتهم أنهم ناكرون لرحمته تعالى، وناسون لفضله تعالى ويركّزون على السيّء الذي حصل معهم ويلومونه تعالى عليه!
من تركيز السورة على الولاية الإلهية، وسياق الكلام عن الكفر "كفور"، نفهم أن الآية هنا تريد أن تريك كيف هم يتعاملون مع المواضيع، فلديهم أفق ضيّق ولا يرون لأبعد من أنفهم، ولذلك هم معرضون عن إنذارك لهم، حيث يعلنون كفرهم بالله تعالى إذا ما أصابهم السوء واضعين كل اللوم عليه تعالى، بينما السوء يحصل بما تقدّمه أيديهم هم! وبالعكس حيث أي خير يحدث معهم فهو منه تعالى.
بعبارة أخرى: هناك دعوة موجّهة لهم عبر الرسول(ع) ليوالوه تعالى، وحين تحصل معهم رحمة لا يرونه تعالى إلها رحمهم، وحين تحصل سيّئة فهم لا يريدون ولاية إله يترك السيئة تحصل معهم! أو يسببها لهم! علما أن السيئة قدّموها هم بما كسبوا لأنفسهم من أفعالهم أو من أفعال آخرين فعلوا السوء، ولم يسببها تعالى لهم، وهي من كفرهم حدثت، ومن كفر غيرهم حدثت، ومن إهمالهم حدثت ومن إهمال غيرهم ححدثت... وهم في تلك الحالة يكفرون به تعالى بدل الصبر والتوكّل المعتمد على الإيمان، فلو كانوا مؤمنين صالحين لن يسببوا لأنفسهم ضررا، وفوق ذلك سيتدخّل سبحانه ليبعد عنهم الكوارث، ولمزيد من التوسّع راجع في ذلك دراسة الآية 96 من سورة الأعراف "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ".
نتذكّر أنه سبحانه حميد، لا يفعل أي شيء غير محمود غير جيّد، بل ما يصيبنا من سوء فنحن سببه، لأننا نحن كمجموعة من البشر نسبّب لأنفسنا ولغيرنا السوء بأفعالنا السيئة مع بعضنا، ونسبّب لأنفسنا السوء منه تعالى بكفرنا وفعلنا للسيئات.

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ{49})

لله، منسوب لصحاب هذا الاسم المحدّد المميّز، ملك السماوات والأرض، وهذا التعبير القرآني يشير إلى كل شيء، فمنسوب له تعالى ملك كلّ شيء، يخلق ما يشاء، فهناك خيارات عديدة أمامه تعالى ويختار منها فيخلق فيركّب ويؤلّف ما يقرره سبحانه.

هذه هي الولاية الإلهية بعمقها العميق، بالأصل كل شيء منسوب ملكه لخالقه، فأنتم من هذا العمق تابعون إلهيا لله تعالى حصرا، حيث يملكهم وأنتم له، وبناء عليه وكما ترى فما معنى ولايتنا لغيره تعالى!

يهب لمن يشاء إناثا، فأمامه تعالى خيارات ليعطي بدون مقابل لشخص ما فيصير لديه بنات، ويهب لمن يشاء الذكور، ويصير لدى شخص ما صبيان من دون أن يأخذ تعالى منهم أي مقابل.

ننتبه لهذه الهبة التي نحصل عليها من نوع مخلوق "يصير لنا"، فقد وهبني تعالى مالا وبيتا وسيّارة... ولكن حين يهبني من يملك كلّ شيء ويملكني أنا، يهبني مخلوقا أنثى أو ذكرا، بدون أن أعطيه أي مقابل، وقد خلق سبحانه كائنات لا تلد ولا تتكاثر، كالملائكة(ع)، وخلق كائنات حيّة ينتج عنها كائنات حيّة بالتوالد، كالجنّ والبشر وبقية الحيوانات، وخلق تعالى كائنات تتكاثر بالانقسام كالخلية والبكتيريا، وخلق كائنات تتزايد في الحجم بالتراكم وتنقسم كالمعادن والجبال والكواكب... هنا تشير الآية لمشيئته تعالى بحصولنا نحن البشر على مولود مخلوق منّا من نوع الأنثى أو من نوع الذكر، وهذه هبة عظيمة.

هناك مجتمعات تفضل الحصول على أولاد ذكور، "وأخرى تفضّل الحصول على إناث"، وقد نبّه القرآن عدة مرات من هذه العقلية وذمّها وسخر منها، وأخبرنا عن وجوب التخلّص من هذه الأفكار المتخلّفة، وهنا الآية تتحدّث عن الهبة الإلهية بمنحنا الأولاد، ومالك كلّ شيء، لأنه الخالق لكل شيء، قد صمّمنا لننجب أولادا من نوعي الذكر والأنثى، وهذه ولاية علينا كمخلوقات مملوكة له تعالى من المستوى الإلهي، لأنه تعالى خلقنا ويملكنا ويتحكّم بنا، وهو يهبنا

الإناث والذكور، فما معنى ولاية غيره سبحانه واعتبار غيره إلها أو من مستوى الإله؟! وما معنى أن لا نسمع ولا نطيع كلام هذا المولى؟! وما معنى أن لا نستجيب لدعوته تعالى لاتباع دينه الحقّ؟!

(أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ{50})

أو يزوّجهم، أو يجعل ما يهبنا من نوعين، ذكرانا وإناثا، فيحصل الزوجان على بنات وصبيان.
ويجعل سبحانه من يشاء عقيما، وهناك أناس يستحيل أن ينتج منهم أولاد.
إنه عليم، لديه علم تام شامل بكل شيء، فيعلم من سيحصل على بنت ومن سيحصل على صبي ومن سيحصل على بنت وصبي، ومن سيكون عقيما لا يحصل على أولاد، لأن هذه الأمور لا تحصل بالصدفة، أو عشوائيا لوحدها بل عن علم مسبق منه تعالى.
إنه قدير، يقدر سبحانه أن يوزّع هباته إناثا وذكرانا أو عقما ولا أحد يمكنه منعه تعالى.
تذكّر دائما أن السورة تتحدّث عن ولايته تعالى، فمن ناحية تعرض علينا الاستجابة لولايته سبحانه عبر الالتزام بشريعته... ومن ناحية ثانية ترينا السورة أننا واقعون فعلا تحت ولايته تعالى علينا، لأنه صمّمنا وخطّط لخلقتنا وما سيجري معنا، وخلقنا وخلق البيئة التي نحن فيها ولم يترك أي شيء للصدف، وهنا ترى بوضوح أننا في حالتنا العادية واقعون تحت سيطرته تعالى في مسألة الحصول على الأولاد، لأن أصل حصولنا على أولاد، أصل تكاثرنا، كان من تكوينه تعالى لنا، وأصل وجود زوجين منّا، أنثى وذكر، أيضا من تكوينه تعالى لنا.
لاحظ أننا دائما نحتار بين رؤيتنا للأمور تجري بشكل عادي، والتي نعلم سبب حدوثها، مثل تحكّمنا الآن بالتلقيح، وتحكّمنا باختيار جنس الجنين عبر الفحوصات... وربما في المستقبل سنتحكّم بإنتاج الحيوان المنوي ذكرا أو أنثى كما نريد... ومن ناحية ثانية نرى القرآن يقول

عن كلّ شيء أنه تحت التحكّم الإلهي، وباختلاف مواضيع السور نجد نظرة من زاوية مختلفة للموضوع، حيث نجد آيات تلفت انتباهنا للعمق وللأساس، لأن أساس أساس خلقنا من الصفر نحن والبيئة التي حولنا "السماوات والأرض" كان من قرار وتصميم وتخطيط إلهي، وقد حصل ذلك على مراحل، ومن بداية تلك المراحل صار بإمكاننا رؤية الأمور مترابطة، ونرى الواحدة تنتج عنها الأخرى، ومن هنا وكلما تطورت علومنا صرنا نرى أن الانتقال من مرحلة لأخرى أثناء خلقنا هي مراحل مترابطة وتحدث بعد بعضها بالتدرج، وحاليا نعتقد أن الغاز الكوني تكاثف، ونتج عنه المواد، وصار لها خاصية الانجذاب والتنافر، فتشكّلت كتلا من مختلف الأنواع، وصارت نجوما وكواكب، شموسا أو غازات أو صلبة أو جليدية... وتشكّلت الأرض حيث اجتمعت الظروف المناسبة لتشكّل المياه عليها... وحصلت ارتباطات وانقسامات كيميائية... نتج عنها تركيبات جديدة من المواد... نحتمل أنه نتج عنها تجهيز البيئة للجيل القادم من أوائل سلسلات الترابط الكيميائي "بوليمر"، ثم رنا ثم... ونتج عنه تغيّر الغلاف الجوي للأرض من انبعاثات الغازات عن البكتيريا... مما نتج عنه تغيّر في تخليق الكائنات المجهرية من تفاعلات بيولوجية... وصولا إلى وجودنا نحن على الأرض.

طبعا لا تزال الكثير من المعلومات تنقصنا لتكملة الترابط بين المراحل، وحتما معلوماتنا ستتغيّر عبر الزمن وتتغيّر معها فرضياتنا عن نشأة الكون والحياة فيه، ولكن بالمجمل وبشكل عام، لا نرى أثناء حديثنا "علميا" عن المراحل والعلاقات بينها أي دخل للإله سبحانه، وهنا يحصل التشويش، فيريدك القرآن أن تفهم أن التصميم والتخطيط للوصول إلى مراحل مترابطة وبعدها النتيجة التي أنت فيها، كانت من الأساس مشيئة إلهية، تصميم وتخطيط إلهي يجعل الأمور تسير بالضبط كما خطّط لها لتصل إلى نهايتها بالضبط، وهذا معنى كلامه تعالى في العديد من الآيات ومنها الآية 38 من سورة ق "وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ" حيث خلق سبحانه السماوات والأرض في ستة أيام، ست مراحل، وما تراه من نتائج، من شمس وقمر ونجوم، من ليل ونهار، نبات

وحيوان... ذكر وأنثى... هو نتاج تصميمه تعالى لكل شيء.
نحن نصنع الآلة خطوة بخطوة وقطعة قطعة، ولو كنّا أعلم وأقدر لبرمجنا آلة تعمل لوحدها وتكمل صنع نفسها وصنع ما نريد... وهذا بشكل ما، نرى أنه يشبه ما فعله تعالى، فبسبب علمه وقدرته من المستوى الفائق، جعل السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، يمشي على تصميمه تعالى، وينتقل من مرحلة لأخرى.
يركّز القرآن على أنه لن ينتقل أي شيء من مرحلة لأخرى لوحده بقدرته الذاتية، وأساسا لن يفعل أي مخلوق أي شيء بقدرته الذاتية، ولو افترضنا أنه فرّغ سبحانه وجوده من حولي، وأخرجني عن سيطرته وملكه، نفترض حدث هذا، عندها سأزول فورا من الوجود ويؤكّد هذا ما نقرأه في الآية 41 من سورة فاطر "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ..." ، ولنفترض لو سهى عنّي الإله للمحة، نسيني للمحة، أيضا سأزول فورا وأنمحي ولا يعد لي كيان، لأنه ليس لي "ولا لأي مخلوق" القدرة على الحفاظ على وجودي وكياني بقدرتي الذاتية، فأنا مخلوق، أنا مركّب مؤلّف من المواد، والمواد ليس لها قدرة ذاتية، وهي لم تخلق نفسها، بل مخلوقة، وبقاؤها يعتمد على الله تعالى، مثل الفكرة التي في رأسك، فإن سهيت عنها، تختفي، ومثل تمثال الثلج، إن تعرّض للسخونة يذوب، وهكذا تتعرّف على الصفات الفائقة لله عزّ وجلّ، فتتعرّف على قدراته التي لا نتحمّل تصوّرها، وعلى سيطرته وعلمه بكل نقطة في السماوات والأرض، دائما دائما، وإلا لزالت مختفية وانمحت.
أطلت عليك حتى نرى المستوى الذي تتحدّث عنه الآيات من وهبه سبحانه الإناث والذكور لمن يشاء، لأننا نرى أنفسنا محكومين بما يحصل معنا، ونرى تصميما تسير عليه الأمور، ونرى تفاصيلا دقيقة وعميقة ينتج عنها ما نحن فيه، وأحيلك لتراجع ما ذكرناه في هذه السورة تحت الآية 28.
أمّا بالنسبة لتطوّر قدرتنا نحن على التحكّم أكثر بالأمور، كقدرتنا على تحديد جنس الجنين الذي نريد، ولون عينيه... فهذا ليس تدخّلا منّا بأمور من مستوى إلهي، بل تطوّر منّا على استعمال القدرات

المتاحة لنا منه تعالى، وما نفعله يبقى ضمن مخلوقات تلعب بمخلوقات، ولن يصل إلى مستوى الفعل الإلهي العميق، حتى لو تلاعبنا بالجينات لتغيير صفات أو إدخال صفات جديدة، وحتى لو ركّبنا الجينات من الصفر... فهذا ضمن مخلوقات تلعب بمخلوقات "بالمواد" وليس خلقا من مستوى إلهي، فهو مثل صنع السفن والطائرات، ومثل زراعتنا للنبات، ومثل خلق النبي عيسى(ع) للطيور من الطين.

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ{51})

وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا، فلم يحصل ولن يحصل أن يوصل تعالى معلومات لأي واحد من البشر، كائنا من كان، رسولا أو نبيا أو عبدا صالحا... إلا وحيا، فيوصل سبحانه المعلومات للإنسان بلا كلام مسموع بالأذن، ولا يكون الكلام صادر عنه تعالى مباشرة، بل عبر واسطة.

أو من وراء حجاب، من خلف شيء بينه تعالى وبين البشري فيكلّمه سبحانه من وراء شيء، كما في حالة النبي موسى(ع) حيث كانت الشجرة التي يصدر منها النار هي الحجاب الذي استخدمه تعالى ليكلّم النبي(ع)، وسيأتيك توسّع في الكلام عن ذلك بعد قليل.

أو يرسل تعالى رسولا، وكما نعلم من القرآن أنه سبحانه يرسل الملائكة(ع)، فيوحي الملاك الرسول إلى البشري "رسول نبي..."، بإذنه ما يشاء، فسبحانه لديه خيارات عديدة ليختار منها ما سيقوله للبشري، ويختار سبحانه ما يشاء منها ما يراه مناسبا بحكمته ومن علمه الواسع، ويحمّل هذه المعلومات لملاك ما، وهذا الملاك يقوم بإيصال الكلام بإذن الله تعالى، أي بسماح منه تعالى فلا يقوم الملاك بهذه المهمّة من رأسه، ولا يختار الكلمات، ولا التوقيت، ولا أي شيء، وكما نفهم من القرآن فإن الملائكة(ع) يحصل بينهم وبينه تعالى كلام من وراء حجاب، ولا يقومون بنقله للرسول أو النبي أو لأي أحد من البشر، إلا بإذنه تعالى.

لاحظ أن الحالة الأساسية لوصول كلام إلهي إلى أحد من البشر تتم عبر واحدة من الطرق التالية: وحي إلهي مباشر الى الشخص وهو إيصال المعلومات منه تعالى مباشرة إلى وعي وفكر الشخص، أو من وراء حجاب يحصل الكلام كما في حالة النبي موسى(ع) وسماعه الكلام عبر الشجرة، أو عبر ملاك ينقل المعلومات منه تعالى فيوحيها الملاك للشخص موصلا المعلومات مباشرة إلى فكر ووعي الشخص، أو يتمثّل الملاك على شكل بشري وينقل المعلومات من فمه إلى أذن الشخص، وهذا ما نقرؤوه في القرآن عن كلام الملائكة(ع) المتمثلة على شكل بشر مع السيدة مريم(ع) ومع النبي إبراهيم(ع) وزوجته، ومع النبي لوط(ع) وأهل قريته.
إنه عليّ، أعلى من كلّ شيء، فهناك فرق هائل بينه تعالى وبين البشر ولا يوجد إمكانية ليتواصلوا معه مباشرة، فهو إله أحد لا شبيه له وليس كمثله شيء ولم يكن له كفوا أحد... وصفاته عالية فائقة جدا جدا ولا يوجد لدى البشر قدرة على تحمّل التواصل المباشر معه تعالى.
إنه حكيم، ما يصل منه تعالى إلى مخلوقاته فمن حكمته تعالى يختار ما سيوصله، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب بل قراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه، ولذلك لن تجد سببا له تعالى أو هدفا من خلق الدنيا وخلقنا، بل تجد الحكمة والرحمة...
والوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أو شرّا، وبناء عليه يصير كل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته يصير وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى

مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية هنا 51 من سورة الشورى "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...".

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "انسانا حيوانا ملكا أو جنّا" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

وطرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا". ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا"، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ". أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ..."، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"، مضافا لها الآية 13 من سورة طه "وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى"، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى لأن هذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، ليصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيا.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ

الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.
الوحي يصدق على وحي الخير والشر، حيث الشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا..." ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرا أو شرا فهو وحي.
ننتبه لما نجده في بعض كتب المسلمين عن رؤية الناس له تعالى في يوم القيامة أو في الجنّة، وهو كلام نابع عن سذاجة في التفكير وفي فهم آيات القرآن، وللأسف نجد بعض الروايات التي تتحدّث بصراحة عن رؤيتنا له تعالى في يوم القيامة وفي الجنّة، بل وهنا على الأرض أيضا، وهي روايات كاذبة ألّفها الكذابون وهم على سيرة الكاذبين من اليهود الذين ألّفوا رواية مصارعته تعالى مع النبي يعقوب(ع)! ونزوله تعالى إلى الأرض وانتقاله بين الناس على حمار! بينما تجد في صريح القرآن أنه حتى الملائكة العالية لا يمكنهم التواصل معه تعالى مباشرة لأنه مستحيل بسبب الفرق الهائل جدا جدا بين طبيعته تعالى وبين طبيعة كل المخلوقات.
للأسف أيضا هناك نوع آخر من السذاجة والطفولية الناتجة عن التساهل في التعابير والأفكار والترف الفكري والهذيان وصولا إلى الاعتقاد بأنه تعالى نور، وبعضهم يقصدون به وصف لحقيقة طبيعته تعالى كنور يمكننا رؤيته بالعين أو بالقلب كما يقولون، ونتج عن أقوالهم هذه تعابير يقولون أنهم وحدهم يفهمون معناها لأنهم على درجة عالية من الإيمان، والآخرون لن يفهموها مهما حاولوا، ومصرون على نوع من التواصل المباشر أو شبه المباشر له تعالى عبر رؤية نوره... وكلامهم هذا لا مستند قرآني له إلا ما ظنّوه بتوهمهم كمعنى لبعض الآيات، وما توهموه من حالات هذيان تصيبهم من كثرة ما أقنعوا أنفسهم بإمكانية حصوله...
إذا، فوصول الكلام الإلهي للبشر لا يتم إلا عبر واحدة من ثلاث: وحيا، أو من وراء حجاب، أو عبر رسول "ملاك"، وبناء عليه:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{52})

وكذلك، مثل الذي قلناه في الآية السابقة عن استحالة تواصل البشري مباشرة معه تعالى، أوحينا إليك، أوصلنا معلومات إلى فكرك ووعيك بدون كلام مسموع عبر الأذن، روحا، شيئا يوصف بأنه صاف خال من أي إضافات، وهو وصف للملاك جبريل(ع) كما نفهم من الآية 193 من سورة الشعراء "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ"، والآية 97 من سورة البقرة "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ..."، فنزل الملاك جبريل(ع) الموصوف بأنه روح لأنه كائن خال من الإضافات ونقل كلامه تعالى وحيا إليك، من أمرنا، من الشؤون من الأمور الإلهية، من الأمور التي يريد سبحانه أن يوصلها لك، فلا ينزل عليك الروح من أمر "الروح" هو شخصيا، أو من أمر غيره تعالى، لا، بل فقط ينزل بأمر منه تعالى، ويوحي لك فقط ما يريده الإله تعالى.

ما كنت تدري ما الكتاب، قبل نزول الروح عليك ووحيه لك لم يكن لديك أي علم حقيقي بالكتاب، فلم تحتك به ولم تتصل به، وتعلم من عموم القرآن عن وجود كتاب رئيسي أساسي في السماء العالية وفيه كلّ شيء عن الدنيا والآخرة، وتقرأ ذلك في الآية 59 من سورة الأنعام "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ"، والقرآن كان كمعلومات في ذلك الكتاب الرئيسي، وأمر تعالى الملاك جبريل "الروح" (ع) بحمل معلومات محدّدة من الكتاب الرئيسي وإيحائها للرسول محمّد(ع)، وللتوسع في معنى كلمة وحي راجع دراسة الآية السابقة، وقبل هذا الإيحاء، لم يكن الرسول محمّد(ع) يدري أي شيء عن الكتاب، وربما كان لديه بعض المعلومات عن شيء ديني... ولكن هناك فرق بين علمك بالشيء عن سماع به، وعلمك بالشيء عن احتكاك به، والدراية هي علمك بالشيء الناتج عن الاحتكاك به والتعامل معه، ولمزيد من

التوسّع حول الدراية راجع الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة كبداية سورة القارعة "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ".
ولا الإيمان، والكلام عن الإيمان عن ترسيخ المعلومة عن الاعتقاد بالحقّ، ما كنت تدري ما هي المعلومات عنه تعالى "الصحيحة" وعن أفعاله وعن قراراته.
من المعلوم أن النبي محمّد(ع) مثله مثل بقية الأنبياء ذو قلب سليم، فكان موحّدا لا يؤمن بالآلهة التي اخترعها الناس، ولم يرض بالظلم والشرائع الفاسدة... وهذا علم، وأمّا الدراية فهي الاحتكاك المباشر بالشيء، حيث وصول معلومات منه تعالى ومؤكدة للمعلومات التي توصّل إليها (ع) بقلبه السليم، هو الدراية، هو الاحتكاك والتماس المباشر مع الإيمان الحقّ.
بعبارة أخرى فالمعلومات عنه تعالى أنه واحد أحد وأن صفاته كذا وكذا، وأنه قرّر كذا وكذا... المعلومات الحقّ عن هذه الأمور كان شيء منها معلوم لمحمّد(ع) قبل أن يصير نبيا، ولكن التواصل معه تعالى عبر الوحي، وبالتالي وصول هذه المعلومات للنبي محمّد(ع)، جعله يدري بها، لأنه احتك مع مصدر هذه المعلومات.
ولكن جعلناه نورا، فجعل سبحانه الوحي يضيء يكشف الطريق الصحيح، نهدي به، بما أوحى سبحانه إلى النبي محمّد(ع) فيضع سبحانه على الأشياء الصحيحة بهذا الوحي، من نشاء من عبادنا، فللتعامل مع الذين مفروض منهم الطاعة لديه تعالى خيارات عديدة للتعامل معهم، وقد قرّر سبحانه "شاء" وأخبرنا أنه سيهدي من يرد منهم الاهتداء، فمن لديه قلب وفكر وعقل وبصر وسمع... سيهديه تعالى، وأمّا الأعمى الأصمّ المختوم على قلبه وفكره... الكاذب الكافر... فهذا لن يهديه تعالى، لا عبر هذا الكتاب سيهديه، ولا سيجبره تعالى على الاهتداء بطريقة أخرى.
وإنك، أيها الرسول(ع)، لتهدي، تضع الآخرين على الأشياء الصحيحة التي توصل لغاية صحيحة، إلى صراط، إلى طريق أساسي، مستقيم، يوصف بأنه على الأحسن حيث لا انحراف ولا اعوجاج فيه.
عطفا على بداية السورة التي لفتت انتباهنا لكلامها الصادر عن وحي

إلهي، ومحتواه التنبيه على وجوب ولايته تعالى وحده من المستوى الإلهي... وعن العقاب لمن والى غيره تعالى... جاءت خاتمة السورة لتلفت انتباهنا من جديد أن ما يقوله الرسول محمّد(ع) لنا عبر هذا القرآن، إنما هو نقل حرفي منه تعالى لنا، وهذا الوحي بهذه المعلومات يصله(ع) عبر الملاك الروح(ع)، والذي بدوره ينقل للرسول(ع) حرفيا ما أمره الله تعالى به، والنبي محمّد(ع) لم يكن يدري ما الكتاب وما الإيمان، ونحن نتعلّم منه (ع) ما تعلّمه هو من الوحي الإلهي، ولسنا نتعلّم منه مما يعلمه هو شخصيا قبل درايته بالكتاب والإيمان.
الطريق الوحيد الصحيح للاهتداء للحقّ محصور فيما يقوله الرسول محمّد(ع) نقلا عن الوحي، وهو (ع) لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فالمعلومات التي كانت عنده شخصيا قبل نزول الوحي ليست هي المعلومات التي نتعلمها منه، بل نتعلم منه ما دراه من بعد نزول الوحي عليه، وقد قام بنقلهما بالتمام والكمال للناس، ولا علاقة له (ع) ولا بأي شكل بما ينقله لنا إلّا كونه ناقلا له، ولا علاقة له بمحتواه... والله تعالى يقول دائما: يوجد طريق واحد فقط مستقيم، طريق واحد فقط للهداية للحقّ، وهو المشي على ما يقوله الرسول محمّد(ع) المستند على ما يوحيه تعالى له، وهو نفسه ما أوحاه تعالى لرسله من قبل، كما قرأنا في افتتاحية السورة، وأي طريق آخر مهما كان فهو ضلال.
بالنسبة لكلمة "روح"، هي في اللغة للشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". وقد درج أن يقول العرب قديما "وحديثا" عمّا ينتج من عملية تقطير السوائل: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... ويعنون الشيء الصافي من العنب من الزهر من النعناع... ومنه وصف بعض المشروبات بأنها مشروبات روحية على أساس أنها نتجت من التقطير الذي يصفّيها من الشوائب. وبناء عليه فالروح التي نفخها تعالى في آدم(ع) والروح الذي نزل بالوحي وروح العنب... يشتركون بوصف الخلو من الإضافات ولكنهم ليسوا من نفس النوع.
مشهور في ثقافتنا الدينية وجود ملائكة آخرين بمرتبة الملاك

جبريل(ع) ومنهم الملاك ميكال(ع) الذي ذكره القرآن في الآية 98 من سورة البقرة، وكلام القرآن لم يقل بحصر الوصف بالروح للملاك جبريل(ع)، فربما الملاك ميكال(ع) أيضا يوصف بالروح.

(صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ{53}

الصراط المستقيم الذي يهدينا به النبي محمّد(ع) عبر ما وصله من وحي إلهي هو، صراط الله، الطريق الأساسي المنسوب لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ، الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وهذا التعبير القرآني يشير إلى كل شيء، فكلّهم له تعالى، ومنسوب تصميمهم وملكهم وإدارة شؤونهم... له تعالى.
ألا إلى الله، حصرا إلى صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" فقط وفقط، تصير الأمور، وهو نفس المعنى الوارد بتعبير آخر في الآية 42 من سورة النور "وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ"، فصيران الأشياء، آخر ما تصل إليه الأشياء فإليه تعالى، حيث بيده تعالى القرار بما سيحصل فيها، لأنها له تعالى ويمكنه أن يفعل بها ما يشاء، وكل ما يحصل معها فبقرار منه تعالى، لأن الله هو الولي الأحد.